الكسندر ديماس (الأب)

قلوب العشاق

رواية

تقديم ومراجعة

د. مختار عبد العليم

الكتاب: قلوب العشاق (رواية)

الكاتب: الكسندر ديماس (الأب)

تقديم ومراجعة: د. مختار عبد العليم

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

ديماس، الكسندر

قلوب العشاق (رواية)/ **الكسندر ديماس** (الأب)، **تقديم ومراجعة:**

د. مختار عبد العليم

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٨٨ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٣ – ٦١ – ٦٨١٨– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٨٠٢٠ / ٢٠٢٠

قلوب العشاق





مقدمة

مؤلف رواية " أحزان العاشقين " هو الكسندر دوماس هو الروائي الفرنسي الشهير ألكسندر دوماس (الأب) كان اسمه عند الولادة "دوما ديفي دي لا باليتيري"، أما تسميته بالأب فترجع لرغبة النقاد ومؤرخي الأدب للتمييز بينه وبين ابنه غير الشرعي، الكسندر دوماس – الإبن، وقد منحه الأب اسمه كاملا، كما أورثه موهبته الأدبية وبراعته في تأليف الروايات والمسرحيات.

ولد ألكسندر دوماس – الأب، في قرية تدعى فيلير كوتريتس، في سانت دومينيك، في اليوم الرابع والعشرين من شهر يوليو ١٨,٢، ووالده الجنرال ألكسندر توماس ديفي دي لابيليتيرا، وكان جده "دافي دي لاباتري" نبيلا أرستقراطيًا شديد الثراء اشتهر بميله الشديد للمغامرة. وقد توجه الجد في أحد الأيام إلى جزيرة، ليصبح وكأنه الملك في مملكة من الزنوج الذين يعيشون في الجزيرة، وقد أنجبت له أحدى رعاياه السود – اسمها لويز دوماس – ابنه دوماس ألكسند، وفوجيء النبيل بأن مولوده يحمل لون بشرة أمه السوداء، فلم يقبل أن يحمل ابنه دوماس اسمه، وفيما بعد عندما دارت الأيام، بعد هزيمة نابليون، رفض الحفيد ألكسندر دوماس طلب أمه بالانتساب لاسم جده الأرستقراطي، وما يتبعه هذا من حصوله على حقوقه كاملة من حيث الثروة والمكانة، مفضلا أن يحتفظ باسم دوماس المجهول. واضطر ألكسندر إلى العمل في وظائف عديدة ليؤمن قوت يومه، ومنها عمله

كناسخ بأحد مكاتب موثقي العقود، وعلى الرغم من كراهيته للدراسة والتحصيل ومحاولات أمه العديدة معه لأن يكمل تعليمه الجامعي، إلا أن نهمه للقراءة كان شديدا بشكل غريب، وظهر هذا في أثناء عمله كناسخ، مما أثار استياء صاحب العمل منه، ففضلا عن انشغاله بالقراءة كان يستغل وسامته ليوقع في شباكه الفتيات الجميلات المترددات على مقر عمله.

وقد ساعدته أصوله الأرستقراطية في أن يلتحق بخدمة الدوق أورليان، ومن بعده التحق ببلاط ملك فرنسا لويس فيليب .

ازداد ضيق ألكسندر دوماس بقريته وأوضاعه فيها تدريجيا، وشعر بأن البقاء في بلدة صغيرة كتلك التي يقيم فيها سوف يقضي على طموحاته، فرحل إلى باريس مغالبا فقره بعزيمة قوية.

وهناك مضت أيامه وكأنه يسير في مفترق طرق، فأي طريقا سيسلكه سيؤدي إلى مصير مختلف عما إذا سلط طريقا غيره، إلى أن التقي بالصدفة بأحد الممثلين الفرنسيين المشهورين أيامها وهو تالما، نشأت بينهما صداقة قوية، واصطحبه معه إلى المسارح التي يمثل فوق خشباتها، ولما انجذب دوماس إلى أضواء اللمسارح وفكر أن يحول القصص التي يكتبها ويرفضها الناشرين إلى مسرحيات، شجعه تالما، وساعده على تمثيلها، ولعب دور البطولة فيها، فعكف دوماس على كتابة المسرحيات والقصص، لكن لولا قوة عزيمته لما استطاع تحقيق النجاح، فقد قُبلت إحدى مسرحياته لتمثل على المسرح الفرنسي، وبدأ التجهيز لعرضها، ثم فوجىء قبيل الموعد المحدد للعرض بسحب مسرحيته، بحجة إعطاء الفرصة لكاتب كبير في السن لم يظفر من قبل بفرصة تمثيل إحدى مسرحياته.

إلا أن هذا لم يفت في عضده، حتى انتصر في النهاية بفضل مثابرته ودأبه، فبعدها كتب مسرحية أخرى، عن هنري الثالث، تعد من بدايات الأعمال الرومانسية في المسرح الفرنسي في ذلك الوقت، وقد حققت نجاحًا ساحقًا أتاح له شهرة ساعدته في نشر كتبه وفي تمثيل مسرحياته التالية، ولم ينسَ دوماس مغامراته العاطفية في غمار بحثه عن النجاح الأدبي والأمان المادي، فقد كان يستهويه اللهو فتعددت عشيقاته حتى أشتهر بأنه دونجوان أو زير نساء.

وتواصلت المغامرات والغراميات في حياته، فانتقل من عشيقة إلى أخرى، وتدهورت صحته من كثرة السهر واللهو والعمل، كما عمل بالسياسة لفترة ولم يلبث أن ملها وهجرها، وفي أحدى نزواته قرر أن يكون رجل دين فالتحق بالكنيسة لفترة لم تطل ثم هجرها عائدا إلى الحياة التي يحبها، وفي عام ١٨٣٢، كانت نقطة التحول الثانية، فقد التقي بالممثلة إيدا فيرييه التي وقفت لأول مرة على خشبة المسرح لتمثيل دور البطولة في مسرحيته "تيريزا"، وكانت إيدا عشيقته في البداية، ثم أحبها و تزوجها.

كان الكسندر دوماس ملولا بطبعه، فلم يطق طويلا حياة الاستقرار، فانفصلا وقرر أن يكف عن كتابة المسرحيات، وأن يكرس جهده للروايات، فعاد إلى سيرته الأولى مع الغراميات والمغامرات النسائية، وفي نفس الوقت اتجه إلى تأليف قصص المغامرات ذات الأصل التاريخي، وكانت رواية "الفرسان الثلاثة" هي أولى أعماله في هذا المجال، وصدرت في عام ١٨٤٤م، وتحكي عن دارتانيان الشاب المغامر الذي يقابل الفرسان الثلاثة الذين يقومون بحماية الملك، ويعرض للمؤامرات التي شهدها ذلك العصر، وفي العام التالي أصدر جزئها الثاني بعنوان "بعد عشرين عامًا"وكان جزئها

الثالث متمثلا في رواية "الرجل ذو القناع الحديدي"، وتدور حول السجين الغامض المحبوس خلف قناع من الحديد في سجون الملك، وبها اكتملت قصة الفرسان الثلاثة.

أما روايته الأشهر "الكونت دي مونت كريستو" فقد صدرت طبعتها الأولى في عام ١٨٤٦، وفيها يتآمر فيها مجموعة من الأصدقاء على إدموند دانتي، وينجحون في سجنه، لكنه يتمكن بعد ذلك من الهرب من السجن ويعود للانتقام خاصة بعدما نجح في العثور على كنز.

وتوالت بعد ذلك رواياته ومنها «الزنبقة السوداء» و«قلادة الملكة»، وظل يكتب حتى وفاته، لم يتمكن دوما من إنهاء آخر رواياته "فارس سانت هيرمين" بسبب وفاته، وقام الباحث كلود شوب باستكمالها نظراً لتخصصه في أدب الكسندر دوماس، وتم نشر الرواية في سنة ٢٠٠٥ لتُصبح من أكثر الروايات مبيعاً، نُشرت الرواية أيضاً باللغة الإنجليزية في سنة ٢٠٠٨ تحت عنوان"الفارس الأخير" .

شهدت الفترة ما بين ١٨٤٠– ١٨٤٨ ازدهارا أدبيا كبير بالنسبة لدوماس، إلا انه لم يحصل على التقدير اللائق به بين الأدباء إلا بحلول عام ١٨٨٠م، أي بعد وفاته بحوالى عشر سنوات. وكان شعوره بالظلم وعدم التقدير دافعا له على مواصلة الكتابة، فنشر بتوقيعه ما يزيد على المائة وعشرين كتابا، قيل أن عدد صفحاتها تجاوز المائة ألف صفحة، فقد ظل لسنوات طوال يكتب لمدة إثني عشر ساعة يوميا، كذلك دفعه التجاهل إلى السفر خارج فرنسا فقام برحلات إلى الشرق وزار مصر والشام، كما أقام لفترة في روسيا، وألهمته تلك الفترة أحداث روايته "سيد المبارزة" وفيها انتقد الأوضاع في روسيا وهو الأمر الذي أغضب القيصر نيكولاس الأول، فقرر منع

دوماس من دخول روسيا.

كذلك تأثر الكسندر دوماس كثيرا برحلته الطويلة إلى الشرق، فقد أتخمت مخيلة بأشياء مثل المآذن، لمعان الشموس البرتقالية فوق صحاري سيناء، أشجار النخيل الخضراء والسماوات الزرقاء الصافية، الأطلال القديمة وبصمات الحملة الفرنسية على مصر، والتي بدت ملامحها في العديد من أعماله، وتولدت عنها العديد من حكايات السفر التي نشرها في عدة كتب ومنها «خمسة عشر يوماً في سيناء»، في ١٨٣٩، و«رحلة الحاج عبد الحميد إلى المدينة ومكة المكرمة» بين ١٨٥٦ و١٨٥٧، و«جزيرة العرب السعيدة» ١٨٦٠٠ وفي عام ١٨٦٤ عاد دوماس إلى باريس، وظل بها حتى توفى في الخامس من ديسمبر عام ١٨٧٠م، بعد أن ترك تراثاً روائياً متميزاً مازالت الأيام تكشف لنا المزيد منه بمرورها. ودُفِن بمسقط رأسه في فيليه كوتريه في مقاطعة آن بروفانس. وقد أدّى التغيّر في التوجهات الأدبية إلى انخفاض شعبيته في أواخر القرن العشرين، قام باحثون مثل ريجينالد هامل وكلود شوب بدراسات أسفَرَت عن إعادة تقييم لأعماله الأدبية، كما أسفرت عن العثور على عدد من أعماله المفقودة، ومن أهمها رواية "حرب النساء".

وقد تعرض دوماس في مسرحياته وروراياته لشخصيات حقيقية أثرت فيه بشكل أو بأخر، فجعلها ضمن شخوص الرواية، وإن أضاف بعض التفاصيل التي تفرضها ضروريات البناء الروائي، وقد تفوقت مسرحيات دوماس على رواياته واحتلت مكانة متميزة في سجل الأدب الفرنسي وتنقسم المسرحية عنده إلى نوعين المسرحية التاريخية والمسرحية المعاصرة والتي أستقى أحداثها من خلال الواقع المعاصر له.

وفي عهد الرئيس جاك شيراك في عام ٢٠٠٢ أثناء الذِكرى المِئوِية الثانِية

لميلاد دوماس، تم نقل رفاته في تابوت جديد مغطى بقماش مخملى أزرق و تم نقل التابوت إلى مقبرة العظماء في البانثيون في جنازة رسمية نقلها التلفزيون وفي حراسة أربعة حراس يرتدون ملابس مثل ملابس الفرسان في قصته الشهيرة "الفرسان الثلاثه" كما تحول بيته خارج باريس إلى متحف .

أما روايته " قلوب العشاق"، فهي واحدة من علامات الرواية الرومانسية في فرنسا، وقد ترجمت تحت عناوين مختلفة مثل "قلوب الأبناء " و "أحزان العشاق " وتعالج موضوع الاختلاف في الحب بين حب العشاق وحب الآباء القائم على التضحية في سبيل إسعاد الأبناء، وتدور أحداثها حول أربعة من الشخصيات، أولهم الطبيب الشهير "مسيو دافريني" وكان طبيبا بارعا حتى أنه كان يتولى علاج الملك نفسه، وكانت زوجته قد توفيت ولم تكن قد أنجبت له إلا وحيدته "مادلين"، ومنعه الوفاء للزوجة الراحلة من الارتباط بامرأة أخرى بعد وفاة الزوجة، فأصبحت مادلين محور حياته، ولم يشاركها إلا ابنة عمتها انطوانيت، وقد توفي أبيها وأمها فكفلها خالها "مسيو دافريني" لتصبح بمثابة الأخت لمادلين، ورابع الشخصيات هو الشاب سليل إحدى الأسر الثرية " أموري دي ليوفيل " وهو ابن وحيد لأحد أصدقاء مسيو دافريني، وقد أوصاه الأب على وحيده وهو يحتضر بين يديه، فأخذه ورباه واعتنى به، وكان آموري يكبر مادلين بسنوات أربع، فلما كبرا ولاحظ الطبيب ما بينهما من مشاعر خشي على ابنته فعمل على التفرقة بينهما، لكن ابنته مرضت فدفعته الخشية عليها إلى أعادة آموري والموافقة على زواجه من مادلين، التي ساءت حالتها أكثر وماتت ليعتزل الأب الدنيا ويعيش على مقربة من مقبرتها، وشاركه في الحزن آموري وانطوانيت، لكن سرعان ما جمع الحب بين قلبيهما، فيعمل "مسيو دافريني" – وقد كلن يعتبرهما بمثابة ابنين له – على تزويجهما، لكنه

يموت في نفس الساعة التي نطق فيها الكاهن ببركة الزواج .

تبدو في أحداث القصة مدى رهافة مشاعر ألكسندر دوماس الأب، وبراعته في تصوير دواخل النفسيات الأربعة، وتعبيره عن الحب بأنواعه المختلفة التي تناوبتها وعبرت عنها شخصيات الرواية، وهو الأمر الذي سيدركه القارىء بنفسه.

د. مختار عبد العليم



نظرة فاتنة

في تمام العاشرة صباحا، ذات يوم من أيام شهر مايو سنة ١٨٣٨ فتح الباب الخارجي لأحد بيوت شارع دي ماتيران، وخرج منه شاب يمتطي جوادًا كستنائي اللون، ويتبعه خادمه ممتطيا جوادًا آخر .. كان الشاب في الثالثة والعشرين، وكان يجمع إلى حسن هندامه وسامة لافتة، ذلك هو أموري دي ليوفيل. ومن يعرفه يدرك أن ما يشيع في قسمات وجهه من الدعة والسكون، وأن الإبتسامة التي ترتسم على شفتيه، هي صدى لما يعتلج في صدره من الخواطر والأفكار.

ولم يكد يغادر البيت حتى أطلق العنان لجواده فإنطلق به يطوي الشوارع والميادين حتى أشرف على شارع دانجوليم فمس الشاب عنانه مسًا رفيقًا خفف الجواد على أثره من سرعته، وأخذ يسير متمهلًا والشاب لا يرفع بصره عن نقطة بعينها في ذلك الشارع.

كان يرنو إلى بيت أنيق يقع بين ساحة ترصع أديمها الأزهار، وبين حديقة غناء من تلك الحدائق الواسعة التي تختفي من باريس شيئًا فشيئًا، لتقوم على آثارها هذه المعاقل الصخرية المتلاصقة التي يضل الهواء طريقه إليها والتي نتعسف إذ نسميها بيوتًا.

ووقف الجواد أمام البيت من تلقاء نفسه كأنه مألوف لديه، غير أن الشاب ظل ينظر طويلًا إلى نافذتين أحكمت عليهما الستائر، وكأنه أراد

التحقق من أن الموعد لم يحن بعد فنظر في ساعته ثم تابع سيره.

عرج أموري على «جاليري ليباج» وأخذ يتلهى بإصابة الأهداف برصاصه إذ كان من أبرع الرماة، فإستطاع أن يمضي نحو الساعة في هذا اللون من التسلية. ثم إنطلق نحو غابات بولونيا حيث إلتقى بصديق وتحدثا لنصف ساعة عن الخيل وحلبات السباق، وإلتقيا بصديق ثالث عاد من الشرق منذ ثلاثة أيام، فإنقضت ساعة أخرى في الإستماع إلى أحاديثه عن مجتمعات القاهرة والقسطنطينية. ثم ودع صاحبيه، وإنطلق كالسهم من حدائق الشانزليزيه إلى شارع دانجوليم وقد بلغت الساعة الواحدة فترجل عن جواده وتركه في حراسة خادمه، ودنا من البيت وقرع الجرس.

وكانت تحية الخادم له تشف عن أنه ليس غريبًا عن ذلك البيت كما دل جوابه عندما سأله عن المسيو دافريني على أنه في غير حاجة إلى التقيد بالتقاليد إذ أجابه: كلا يا سيدي.. ولكن السيدات بقاعة الإستقبال الصغرى.

وسار في ممشى ضيق مشي الصديق القديم حتى بلغ القاعة فوقف ببابها لحظة. وكانت فتاتان في الثامنة عشرة عاكفتين بالقاعة على إطار للتطريز بينهما، بينما جلست مربيتهما الإنجليزية العجوز بجانب النافذة وقد ألقت كتابها وراحت ترنو إليهما في رقة وحنان. وقد تقارب وجهاهما حتى ليبدو أن الفنان الخالد روفائيل قد جمع بينهما في ذلك الموضع كنموذجين للونين مختلفين من ألوان الجمال، يتفقان حسنًا وبهاء،

ويختلفان فيما عدا ذلك أشد الاختلاف، فإحداهما شقراء ذات بشرة مشربة بشيء من الإصفرار، وشعر طويل مجعد على الطريقة الإنجليزية، وعينين زرقاوين، وجيد أتلع. وهى مخلوقة دقيقة الأعضاء وثيقة التكوين،كأنها إحدى العذارى اللواتي لم يتفتق عنهن خيال شاعر غير شكسبير العظيم، وكأنها لم تخلق إلا لتسري في أجواز الفضاء مسرى النسيم، أو تحلق مع الملائك فوق أعناق السحاب.

أما صاحبتها فذات شعر فاحم مضفور، وبشرة متألقة، وعينين نجلاويين، وشفتين تصبغهما حمرة قانية. وكانت كل إشارة من إشارتها تفيض بالحيوية والنشاط، وكل قسمة من قسمات وجهها المتهلل آية ناطقة من آيات السعادة والهناء. فإذا ما طاف بنفسها طائف من الهم والإنقباض–وما يخلو أسعد الناس من بواعث الهم والكدر أحيانًا–فإن ذلك الهم لا يقوى على محو آيات الطلاقة والمرح، ولا يفتأ الإبتسام يتراءى من وراء التجهم والعبوس، كما يتراءى قرن الغزالة من خلف السحب والغيوم.

كانتا ترسمان على رقعة التطريز باقة من الزهر تختلف ألوانه، إذ كانت الأولى ترسم الزنابق البيضاء، والثانية ترسم زهور السوسن والقرنفل الزاهية الألوان.

ظل الشاب هنيهة خارج الحجرة يرنو إلى من بها، ثم دفع الباب على مصراعيه فإلتفتت الفتاتان، وأفلتت منهما صيحة خافتة كأنهما ظبيتان فاجأهما الصياد، غير أن أحمرارًا متألقًا عابرًا بدا في وجنتي الفتاة

الشقراء، أما الأخرى فقد شاع في محياها شحوب لا تكاد تستبينه الأبصار.

وسار الشاب إلى الفتاة الشقراء في لهفة واضحة دون أن يعير صاحبتها إلتفاتًا وقال: أرى إنني أسأت في الدخول يا مادلين دون إستئذان فقد أزعجتك، ولكني لا أزال أعد نفسي ربيبًا لأبيك المسير دافريني، وأتصرف كما كنت أفعل عندما كنت أعيش في بيته.

أجابت مادلين: بل إنك لتحسن كل الإحسان يا أموري وما أخالك تستطيع في ذلك وإن حاولت، إن الأسابيع الستة التي انقضت على عيشك بعيدًا عنا لا يمكن أن تحولك عما ألفت خلال الثمانية عشر عامًا التي أقمتها بين ظهرانينا، ولكنك لم تحيي انطوانيت حتى الآن.

فمد أموري يده إلى صاحبتها مبتسمًا وهو يقول: إصفحي عما بدر مني يا انطوانيت فقد شغلني الإعتذار إلى مادلين عما راعها من سوء مسلكي، وأسرعت إليها إذ سمعتها تصيح.

ثم إنثنى إلى المربية قائلًا: كيف حالك يا مس براون؟

وإبتسمت انطوانيت في شيء من الحزن، فقد صاحت كما صاحت مادلين ولكنه لم يلق إليها بالًا!. أما مس براون فما رأت شيئًا، أو قل إنها رأت كل شيء ولكنها تؤثر التغاضي عما ترى. وقالت: لا حاجة بك إلى الإعتذار يا كونت، وحبذا لو إقتدى بك كل زائر حتى تشفى هذه الطفلة الحمقاء مما ينتابها من الجزع لغير سبب. أتعرف ما بها؟ إنه الإغراق في الخيال، والإستسلام للأحلام. إنها تعيش في عالم خاص بها تعتكف فيه

حين تسأم عالم الحقائق، ولست أدري في الحق ما الذي يعرض لها في ذلك العالم الخفي، ولكني أعلم أن مادلين إذا مضت في هذه الخطة فستفضي بها إلى الإستعاضة عن الحقائق بالأوهام، وتضحي حياتها أحلامًا. وأحلامها حياة!.

وأرسلت مادلين من عينيها الساجيتين إلى الكونت الشاب نظرة فاتنة كأنها تقول له: أنك أنك تعرف يا أموري من يملأ أحلامي!

ولمحت إنطوانت هذه النظرة فعراها الجمود لحظة، ثم سارت إلى البيانو وراحت تعزف عليه لحنًا بأصابعها الرشيقة وهي ذاهلة مستغرقة، بينما عادت مادلين إلى التطريز وجلس أموري بجانبها.

غضب جامح

همس أمورى: يحزنني يا مادلين أننا لا نستطيع أن ننفرد بنفسينا فنتحدث كيف نشاء، أبمحض الصدفة هذا أم هي أوامر أبيك؟

– أنا لست دونك عذابًا وألمًا، و هذه سنة الأشياء دائمًا، وما نتشوف إلى الشمس المحرقة إلا حين تكتنفنا الظلمات!

– ألا يمكن أن تعمل انطوانيت على إبعاد مس براون عنا؟

– كثيرًا ما هممت بذلك يا أموري، ولكني لا أكاد أفتح فمى لأتحدث إلى إبنة عمتي في هذا الشأن، حتى يحتبس صوتي ويستعصي علي القول.

– أنت تعلمين كم يسعدني لقاؤك، ولكني أوثر الحرمان من هذه السعادة على أن ألقاك دائمًا في حضرة الغرباء الذين تضطرين أمامهم إلى كتمان عواطفك.

هبت مادلين واقفة وهي تقول مبتسمة: ألا تأتي إلى الحديقة معي يا أموري لقطف بعض الزهور؟ فنهضت انطوانيت مسرعة وقالت: ليس من الصواب أن تخرجي إلى الحديقة يا مادلين في هذا الطقس البارد، هل تتفضلين يا مس براون بموافاتي بالزهرة الذابلة من مخدع مادلين واللحاق بي في الحديقة لإنتقاء ثمرة تماثلها؟ وتبادلت مع مادلين نظرة ذات معنى ثم نفذت إلى الحديقة من إحدى الشرفات وغادرت مس براون الغرفة

دون أن تنبس بكلمة. وما كادت الغرفة تخلو للعاشقين حتى أخذ أموري يد مادلين وقال:

– قد خلونا إلى أنفسنا أخيرًا إنني أحبك!

– قل لي مرة أخرى إنك تحبني، يبدو لي أن حبك وحده هو الذي يبقيني على قيد الحياة. وإني لأتنفس في يسر وراحة حينما تكون معي. أما حين تغيب فإني أحس بقلبي يكاد يكف عن الخفقان ويسكن سكون الموت. فمتى يتاح لي أن أحظى بقربك دائمًا!

– سأكتب إلى أبيك في شأن زواجنا هذا المساء مهما حدث يا مادلين.

– لا تتردد في الكتابة إلى أبي يا أموري، وسترى أنه لا يستطيع الأعراض عن رسالتك وما يعززها من ضراعتى وتوسلي.

– ليت لي مثل إطمئنانك يا مادلين، ولكن أباك قد تحول تحولًا عجيبًا فأخذ ينظر إلى كغريب لا تربطه به صلة، بعد أن كان يعاملني معاملة الوالد لولده. وبعد أن كنت أعيش تحت سقف هذا البيت كأخ لك أصبحت تجفلين مرتاعة إذا فاجأتك بدخولي.

– تلك كانت صيحة فرح يا أموري، ولا يمكن أن أفاجأ بمقدمك لإنني أترقبه وأتطلع إليه في كل حين. غير أن ضعفي قد تزايد حتى صرت لا أملك كبح عواطفى وإنفعالاتي، أجل .. أنا أجد في قربك من الطمأنينة والهدوء مثل ما كنت أجده بقرب أمي، فكأنما أراد الله حين إختارها

لجواره أن يمنحني حبك عوضًا عن حنانها، وإذا كانت هي قد أخرجتني إلى نور النهار، فقد أخرجتني أنت إلى نور الروح.

فصاح وهو يضغط على يدها بشفتيه الملتهبتين: سأظل معك دائمًا أحبك يا مادلين.. أحبك! ولكن الفتاة أجفلت من قبلته العنيفة، وأخذت تشد على جنبها بيدها وهي تقول: كلا: كلا! إن في صوتك من تأجج الصبابة فوق ما ينبغي، وإن في شفتيك لوقدة لافحة!

– ليكن ما تريدين يا مادلين، وسأجلس عند قدميك قانعًا منك بحديث أخوي. ثم سمع الحبيبان حركة خفيفة بالحجرة، فرفعت مادلين رأسها، والتفت أموري خلفه، وإذا المسيو دافريني والد مادلين واقف وراءهما وقد تجلت في وجهه أمارات الغضب.

وهتفت مادلين: أبي!

وصاح أموري في إضطراب وهو ينهض وينحني أمامه: وصيي العزيز!

لم يجب مسيو دافريني، بل خلع قفازه في تمهل، وألقى بقبعته على أحد المقاعد، وصمت برهة، ثم قال في صوت يهتز غضبًا وإنفعالًا: ماذا! .. أنت هنا مرة أخرى يا أموري!. لسوف تغدو من الدبلوماسيين البارزين إذا ثابرت على درس أساليب السياسة في مخادع السيدات وتعرف حاجات الجماهير ونزعاتها بمشاهدة كيف يتم الوشي والتطريز!. وما أحسبك تظل طويلًا ملحقًا بسيطًا بالسفارة، فستطفر إلى منصب السكرتير الأول في لندن أو بطرسبرج مادمت عاكفًا على إستجلاء خطط دهاة الساسة أمثال تاليران ومترنخ في صحبة فتاة غريرة ساذجة!.

وقال أموري في صوت تتنازعه الطاعة لهذا الرجل، والغضب لكرامته المجروحة: قد تظن يا سيدي إنني أهمل الدراسات الضرورية، ولكن الوزير لم يأخذ علي شيئًا من هذا القبيل وقد تلوت عليه بالأمس وثائق كان قد طلب إلي إعدادها.

– أعهد إليك الوزير بإعداد شيء من الوثائق؟ أفي تأليف آخر للجوكي، أم في أحكام الملاكمة والمبارزة وما إليها من ألوان الرياضة؟ ليس يدهشني رضاه عنك إذا كان الأمر كذلك!

فأجاب أموري في شيء من الإبتسام: هل لي أن أذكرك يا وصيي العزيز بأني مدين لك بهذه الأشياء التي تعيرني بها؟ لقد كنت تلقي في روعي دائمًا أن اللعب بالسلاح وركوب الخيل والإلمام باللغات الأجنبية التي تعلمتها من ألزم الأشياء للرجل المهذب في هذا العصر.

– أعرف، ولكن تلك الأشياء للراحة فلا تجعلها شغلك الشاغل. إنك لتمثل الجيل الجديد أتم التمثيل، فالواحد منكم ينفق ساعة في الصباح بالمجلس، وأخرى بعد الظهر بالسوربون، وثالثة في المساء بالمسرح، ويحسب نفسه نظيرًا لميرابو، أتقول أن الوزير هناك بالأمس؟ حسنًا .. لك أن تقر عينًا بهذا الثناء، وستريك الأيام أنك تجري وراء سراب خادع، أنت ترى نفسك في الثالثة والعشرين حاصلًا على دكتوراه الحقوق وبكالوريوس الآداب .. وملحقًا بالسفارة، وأنه يباح لك حضور تشريفات البلاط في بذلة موشاة بالذهب. وقد تكون تلقيت وعدًا بوسام اللجيون دونور كما وعد آلافًا غيرك دون أن يظفروا بتحقيق الوعد،

ولعلك تقول في نفسك «إنني غني، فما حاجتي إلى الجهد!» وهكذا يفضي بك هذا التفكير البارع الحكيم إلى الفتور والكسل!

وإرتاعت مادلين من غضب أبيها المتزايد فهتفت: أبت العزيز! وغمغم الشاب: سيدي! سيدي! واستطرد مسيو دافريني قد خفت حدته قليلًا، وإن إزدادت لهجته خشونة وقسوة: إن تقريعي لك يمضك ويؤلك لأنك تعرف ما فيه من الصواب؟. أليس كذلك؟. حسنًا. لا مناص لك إذن من توطين النفس على إحتماله إذا أبيت إلا إضاعة وقتك سدى، أو تنقطع عن زيارة وصي متعسف قاس. إن وصايتي عليك قد زالت من الأمس، ولكني أشعر أنني لا أزال مسئولًا عن الأمانة التي حملني إياها صديقي القديم الكونت دي ليوفيل وأرى من واجبي تنبيهك إلى أن شرف مولدك ووفرة ثرائك لا يغنيان عنك في هذا الزمن العصيب مالم تجمع إليهما فضيلة الإعتماد على النفس. وما يلام أي والد كريم إذا أبى عليك يد إبنته حين يرى أنك لا تملك من أسباب المجد والفخار غير النجاح في حلبات السباق وسعة النفوذ في نادي الجوكي!

كان المسيو دافرينى أثناء ذلك يذرع الغرفة ثائرًا، دون أن ينظر إلى ابنته التي ترتجف، أو إلى أموري الذي كان متجهمًا ولم يكن يعقل لسان الشاب عن الرد غير احترامه للرجل الذي كفله وقام على تربيته، فراح ينظر إليه مدهوشًا حائرًا في سبب هذا الغضب الجامح العنيف.

ثم وقف أمامهما المسيو دافريني واستطرد قائلًا: ألم تفهم لماذا طلبت إليك الكف عن الإقامة ببيتنا ؟ ذلك لأني أرى أن الشاب النبيل

الثري لا يخلق به إضاعة وقته في اللهو مع الفتيات، ولأن ما يسوغ في الثانية عشرة يغدو قبيحًا نابيًا في الثالثة والعشرين، وأخيرًا لأني أرى أن مستقبل إبنتى قد يتأثر بمستقبلك عن طريق هذه الزيارات المتصلة، وإن لم تجمع بينكما رابطة من الروابط.

صاح أموري جازعًا: سيدي!! دع مادلين بربك ألا ترى أنك تقتلها؟ وكانت مادلين قد تهافتت في مقعدها فاقدة الحراك، وشحب وجهها شحوب الموتى. وهتف المسيو دافريني وقد عراه مثل شحوبها: إبنتي! إبنتي بل أنت الذي تقتلها يا أموري. ثم رفع مادلين بين ساعديه وإتجه نحو الحجرة الملاصقة، وأراد أموري أن يتبعه فإنثنى إليه قائلًا: مكانك.. إني آمرك.

– ولكنها في حاجة إلى الإسعاف.

– حسنًا.. ألست طبيبًا ؟

– عفوًا يا سيدي، ولكنه يسرني أن أكون قريبًا حتى..

– شكرا جزيلًا يا سيدي، فمادلين مع أبيها، وسأعني بها بنفسي فأستودعك الله!

– أستودعك الله إلى حين..

ودخل مسيو دافريني الحجرة وأغلق بابها عليه، ووقف أموري حزينًا يائسًا. ثم دوى الجرس للخادمة وأقبلت في تلك اللحفلة انطوانيت ومس براون.

وهتفت انطوانيت: يا الله! ماذا حدث؟ لماذا أراك شاحبًا مضطربًا؟ أين مادلين؟

فصاح الشاب: إنها تموت!! أسرعي إليها بربك فإنها في أشد الحاجة إلى معونتك.

أسرعت المربية إلى الغرفة فقالت انطوانيت: ولماذا لا تدخل أنت أيضًا؟

– لأنه منعني من ذلك.

– من؟

– المسيو دافريني! والد مادلين!

واختطف الشاب قفازه وقبعته واندفع خارجًا كالمجنون.

غريب في البيت

عاد أموري إلى بيته ليجد في انتظاره صديقًه فيليب أوفراي، وهو محام شاب من زملائه في الدراسة، وكاد أموري يذهب إلى مخدع نومه رأسًا تاركًا فيليب ينتظر حتى يمل الإنتظار، ولكن فيليب كان شابًا كريم النفس طيب الخصال، فعز على أموري أن يعامله بهذه الجفوة، وسار إلى حجرة المكتبة حيث كان ينتظره.

تقدم فيليب نحوه قائلًا: لقد سئمت الانتظار وهممت بالإنصراف لولا أني أريد أستشارتك في شأن خطير.

فأجاب أموري: إن ما بيننا من ود يحول دون غضبك مما أوشك على قوله لك. ليس ثمة غير أمرين لا يحتملان التأخير، هما أن تكون منيت بخسارة فادحة في الميسر، أو اعتزمت مبارزة أحد من الناس، فإن مالي وشخصي تحت أمرك.

قال فيليب: بل الأمر أشد خطورة من هذين ولكنه أقل منهما عجلة وإسراعًا.

– فلترجىء إذن ما جئت من أجله إلى يوم آخر يا صديقى فقد لقيت في يومي كثيرًا من أسباب الهم ولن أفقه لك قولًا.

– ألا أستطيع مساعدتك؟

– كلا .. سوى أن تكلني الآن إلى همومي.

– أموري غير سعيد! أموري الذي يملك ثروة من أضخم الثروات.. ما كنت لأصدق هذا لولا أن سمعته منك!

– ولكن هذه هي الحقيقة يا صديقي، إنني شقي بائس كأشد ما يكون الناس أشقياء بائسين! وأن خير ما نسديه إلى اصدقائنا في أوقات الحزن والشقاء هو أن ندعهم لهمومهم وأحزانهم وهيهات أن تعرف معنى الألم إلا إذا فهمت هذه الحليئة يا فيليب.

– سواء فهمت أو لم أفهم سأتركك الآن تخلو بنفسك فإلى الملتقى.

– إلى الملتقى، وأرجو أن تطلب إلى خادمي ألا يزعجني لأي سبب من الأسباب.

وبعد انصراف فيليب تهالك أموري على مقعده، وأخذ يستعرض حياته كلها فلم يجد فيها ما يبرر هذا الذي نزل به على غير انتظار.

لقد أقبلت عليه الحياة بوجهها الضاحك وخلف له أبوه إسمًا عريقًا كريمًا، و ثروة تربو على مليون ونصف مليون، واختار صديقه الحميم المسيو دافريني وصيًا على ولده، وهو طبيب من أشهر أطباء العصر، فأدى الأمانة بعد وفاة صديقه فعنى بتربية أمورى عناية الوالد بولده.

ونشأ أموري مع مادلين وهو لا يكبرها بأكثر من ثلاث أو أربع سنوات، فكان بينهما من الحب ما يكون بين الأخوين، غير أنه لم يلبث أن استحال هوى متضرمًا، فتعاهدا ألايفرق بينهما شيء قط من أحداث

الحياة وتصاريف الأيام، وكان المسيو دافريني يفيض على إبنته مادلين كل ما كان يكنه فؤاده من الحب لزوجته الحسناء التي أودى بها السل وهي لا تعدو الثالثة والعشرين. فأضحى العاشقان الصغيران على ثقة من موافقته على زواجهما متى حان الوقت الملائم. وكان كثير التغيب عن البيت لما يشغله من المهام في المستشفى الذي يتولى إدارته، والأكاديمي التي يتمتع بعضويتها، فخلا الجو للعاشقين يجريان في حلبة الغرام ما شاءا، ويبنيان في الهواء قصورًا يحسبانها أثبت من الرواسي على الأحداث والغير لما يدعمها من ذكريات الماضي، وأحلام المستقبل وقد بلغت مادلين السابعة عشرة، وأوفى أموري على الثانية والعشرين. وعند ذلك تبدلت طباع المسيو دافريني فجأة، وإختفى ما عهداه فيه من البشر والإيناس.

ظنا أول الأمر أن مرجع هذا التحول لحزنه على موت شقيقة له كان يحبها حبًا شديدًا ويقوم على تربية إبنتها انطوانيت مع مادلين. وهي فتاة تماثل مادلين عمرًا، على أنه لم يزدد على الأيام إلا عبوسًا وجفاء وراح يصب صواعق غضبه في كل حين على أموري أو على مادلين التي كان يحنو عليها قبل ذلك حنوًا لا يعرفه غير قلوب الأمهات.

وغدت انطوانيت صاحبة الحظوة عنده، وصار لها من الدالة عليه ما لم يكن لغير مادلين، ولم يكن يدخر وسعًا في إطراء إبنة أخته وأداء عليها والثناء عليها أمام أموري، وكثيرًا ما لوح له من طرف خفى بأنه يرضيه كل الرضا أن يتخلى الشاب عن الأمل الذي طالما تعهده ونماه في فؤاد العاشقين، وأن يتجه بعاطفتة المشبوبة إلى انطوانيت. أما أموري

ومادلين فلم يريا في ذلك التبدل العجيب غير سحابة صيف لا تلبث أن تنقشع.

وحدث أن كانا يلعبان في أحد الأيام وأموري يطارد مادلين، وهي تحتمي منه بطاولة البلياردو وتدور حولها، وإذ بالسير دافريني يدخل فجأة، وقال في تلك اللهجة القاسية التي ألفاها منه في الأيام الأخيرة: ما معنى هذا العبث الصبياني؟ أتظنين أنك لا تزالين في العاشرة يا مادلين! أم لا تزال أنت يا أموري صبيًا في الخامسة عشرة؟ لقد حسبت مثل هذا الركض قاصرًا على ممثلي أدوار الرعاة في الأوبرا، ولكني كنت مخطئًا في ظني.

وقالت مادلين متعثرة: ولكن يا أبي.. لقد كنا حتى الأمس.

– إن الأمس غير اليوم يا مادلين، وإذا أردت أن تعيشي في الماضي فعليك أن تتخلى عن المستقبل. ولئن كنت راغبة حقًا في العود إلى عبث الطفولة ولهوها فلماذا نبذت عرائسك؟

وإعترضه أموري قائلًا: إنك تقسو علينا، فكثيرًا ما قلت لي أن إحدى آفات العصر الحاضر هي تعجل الأطفال في الوصول إلى الرجولة!

– أقلت هذا حقا؟ لعله ينطبق على الطلبة الذين يغادرون الجامعات وفي ظنهم أنهم موكلون بإصلاح نظام العالم أما أنت يا عزيزى أمورى فما أحراك بالتزام الجد رعاية لمركزك إذا لم تشأ النزول على حكم سنك. واذا لم تستطع الجد، فلا أقل من أن تتكلفه! وإني لأريد على كل حال

محادثتك الآن حديثًا جديًا، ويحسن بك أن تغادري الغرفة يا مادلين.

وغادرت مادلين الغرفة وهي تلقي على أبيها نظرة من تلك النظرات التي كانت فيما سلف تلين فؤاده وتذهب غضبه، ولكنه ظل عابسًا متجهمًا، وأخذ يذرع الغرفة وأموري ينظر إليه واجفًا قلقًا .. ثم وقف تلقاء الشاب وقال في صوت جاف غليظ: كان ينبغي يا أموري أن أطلعك منذ زمن بعيد على ما أريد الإفضاء به الآن إليك، وهو أنه لم يعد من اللائق أن تعيش في بيت به فتاتان صغيرتان لا تمتان إليك بوشيجة من الوشائج. وإني لآسف أشد الأسف على ما إنتهى إليه رأيي، ولعل هذا هو ما حملني على التردد طويلًا في مصارحتك بأن هذا الفراق لا معدى عنه، ولكن كل تسويف بعد اليوم في إنفاذ ما قر عليه عزمي يكون خطأ لا يغتفر، ومن العبث أن تجادل فيه إذ لن يصرفني عنه شيء.

فقال أموري وصوته يضطرب تأثرًا: طالما سرني يا وصيي العزيز ظني أنك تعدني ولدًا لك، وأملي في أن أغدو يومًا ما من أعضاء أسرتك .. فهل أغضبتك دون أن أدري، أم ذهبت الأيام بما كنت تكن لي من الحب فحكمت علي بهذا النفي؟

– أرى يا ولدي العزيز إنني غير مدين لك إلا بحساب وصايتي عليك، وقد أرضاك هذا الحساب فهلا ترى الأمر بيننا منتهيًا؟

– أنت مخطئ يا سيدي، فسأظل مدينًا لك ما حييت فقد ربيتني.، ولم تكن وصيًا فحسب وإنما كنت وصيًا وأبًا ومعلمًا وصديقًا. وإني لمدين لك فوق كل شيء بالطاعة العمياء، وخير دليل أقدمه على ذلك

هو إسراعي إلى الرحيل .. وداعا يا أبت.

ودنا من المسيو دافريني فلثم يده برغم ممانعته، ثم أسرع بالخروج.

وفي اليوم التالي استأذن في الدخول عليه كأنه غريب عن البيت وأهله وأنبأه في صوت ثابت يكذبه إغروراق عينيه أنه استأجر بيتًا صغيرًا في شارع دي ماتيران، وإنه جاء يودعه. وكانت مادلين بالغرفة فمال رأسها حزنًا كما يميل النبات الغض حين يدركه الذبول، فخفف أبوها من قسوته، ومد يده إلى أموري قائلًا: لقد أخطات الفهم يا أموري، فما قصدت إبعادك، وهذا البيت بيتك وستستقبل فيه بالترحاب كلما جئت.

والتمعت بارقة أمل في وجه مادلين الحزين، ولاحت على شفتيها ابتسامة، ولكن أموري كان يعلم أن أباها ما تكلف هذا اللين إلا للتسرية عنها، فانحنى أمامه، ولثم يد مادلين وغادر البيت حزينًا. وما كان العاشقان يقدران قبل هذا الفراق ما يملك عليهما قلبيهما من الهوى، فأخذا يكابدان من أعراض الصبابة ما لا عهد لهما به، والمسيو دافريني لا تفوته خلجة من خلجاتهما حتى لقد ندم أكثر من مرة على سماحه للشاب بزيارة بيته بعد رحيله عنه.

استعرض أموري كل ذلك وهو جالس في مكتبته، فلم يهتد إلى ما يصلح تعليلًا لسخط المسيو دافريني المفاجىء إلا أن يكون تقاعسه عن خطبة مادلين رسميًا، وظن أبيها أنه يعبث ويلهو. فعقد عزمه على مفاتحة المسيو دافريني في هذا الشأن، وكتب إليه من فوره الرسالتين التاليتين.

رسالتان

«سيدي أنا في الثالثة والعشرين من العمر، وإسمي أموري دي ليوفيل وهو من أعرق الأسماء الفرنسية وأشرفها. ولما كنت وحيد والدي فقد ورثت عنهما عقارًا قيمته تقرب من ثلاثة ملايين فرنك ويدر دخلًا سنويًا قدره مائة ألف. وإني لأفضي بهذه الميزات التي جاءتني عفوًا ولم يكن لي في إحرازها من فضل راجيًا أن أتمكن بفضل هذه الثروة وذلك الإسم، وبفضل مؤازرة من يحبونني، من بلوغ أرفع درجات السلك السياسي الذي اخترت الإنتظام فيه.

«ولي الشرف يا سيدي أن أطلب يد ابنتك المدموازيل دي دافريني».

***

«وصيي تجد مع هذا كتابًا رسميًا إلى المسيو دافريني توخيت فيه ما تقضي به التقاليد، فهل تسمح الآن لولدك بالتحدث إليك من قلب يفيض بالشكر وعرفان الجميل؟ إني أحب مادلين وأكبر ظني أنها تحبني كذلك، وإذا كنا تقاعسنا عن إطلاعك على هذه الحقيقة فما كان ذلك إلا لأننا كنا نجهلها.

ولطالما دعوتها «مادلين» ودعتني «أموري» ولطالما جبنا معًا الوهاد الظليلة، ورقصنا معًا تحت أشجار الكستناء في أيام الصيف المشرقة،

وأنفقنا نهارنا على ضفة النهر أو بين الخمائل فلماذا يفرق الآن بين حياتينا وقد إمتزجتا في فجرهما، ولماذا لا أكون ولدك حقًا كما كنت تدعوني دائمًا؟ أيمكن أن يكون قد خالجك الظن يا وصيي العزيز بأن ما يزخر به فؤادي من العواطف المشبوبة ليس إلا نزوة من نزوات الصبا وإثارة من عبث الطفولة؟ ولكني أكبر مادلين بأربع سنوات كاملات، وما كان العبث واللهو من طبعي قط. في وسعي مجانبة أسباب اللهو بكلمة منك أو إشارة من مادلين فليس يعدل إحترامي لك غير حبي لها. واني لأقسم أن أجعلها سعيدة هانئة وأتوفر على تحقيق هذه الغاية، والله يعلم أن حياتي بأسرها ملك لها فليس لي في نفسي قليل أو كثير. أنت تحب مادلين. فلا ريب أنك تعلم أن القلب الذي يخالطه بحبها مرة لا يمكن أن يجد عن هذا الحب منصرفًا أبد الدهر. وكيف يمكن نسيانها والسلو عنها؟ أواه يا والدي العزيز! إن حبي لها فوق أن تصفه الكلمات وإني لأثبت على هذه الصفحة كل ما يسنح في الخاطر دون تكلف ولا أعمال روية ولعل هذا يدلك على عظم وجدي بها.

إمنحني إياها يا أبت العزيز.. وإبق معنا لترشدنا وتهدينا، فإذا لمحت بعيني مادلين عبرة واحدة إسألها أي حزن سببته لها، فلك أن تلهب رأسي برصاصك أو تغمد في صدري خنجرك، وأنت آمن من العدل واللوم، ولكن لا تخف يا أبت، فلن تجد مادلين ما يحملها على البكاء. ومن ذا الذي تبلغ به القسوة فيبكي هذا الملك الكريم؟ أي الناس تسول له نفسه إيلام هذه الطفلة الرقيقة التي تجرحها الكلمة الجافية، ويسحقها الخاطر العنيف، إن مثل هذا الرجل يكون نذلًا جبانًا،

ولعلك تعرف إني على كثرة عيوبي لست بالنذل الجبان.

سوف تكون ابنتك قريرة هانئة يا أبتاه، وإني لأدعوك أبي كما عودتني، غير أني آنست منك في العهد الأخير قسوة لا عهد لي بها، لقد غضبت إذ حسبت أنني كتمت عنك حبي كأنه بعض الذنوب وليس فيه علم الله ما يغضب ويسوء. وهأنا أكشف لك عن دخيلة نفسي تستظهر مكنونها، وتستجلي أسرارها، وأبعث إليك بدفتر يومياتي الذي أسجل فيه كل ما يعن لي من الخواطر، أو يصدر عنى من الأعمال. وهي خطة علمتني إياها طفلًا، ولم تخرج أنت عنها قط على كثرة أعمالك ومشاغلك وإني لأضع بين يديك أغلى آمالي، سائلًا الله ألا تحطمها بالرفض. إني أحبه مادلين يا أبت، فإذا ما قضيت أو قضى الله بالفراق عنها كان في ذلك موتي.

أموري دي ليوفيل»

وحزم في نشر يومياته مع الرسالة وبعث بهما إلى المسيو دافريني مع خادمه ثم جلس ينتظر الرد وهو نهب للمخاوف والهواجس.

من مذكرات المسيو دافريني

غادر المسيو دافريني مخدع ابنته، وأغلق على نفسه باب مكتبه وهو شاحب اللون، تبدو على محياه إمارات ألم بالغ وحزن شديد. وأخفى وجهه بين راحتيه متنهدًا .. وإستغرق في تفكير عميق. ثم نهض وأخذ يذرع الحجرة بخطوات قلقة مضطربة، وتناول من جيبه مفتاحًا صغيرًا ظل يقلبه بين أصابعه برهة، ثم فتح درج الكتب وأخرج منه دفترًا. كان دفتر يومياته الذي يثبت به خواطره وأعماله يومًيا كما يفعل أموري، وبعد أن تلا آخر ما خطه بالأمس في صوت مسموع، لاحت في عينيه نظرة تنبيء أنه اعتزم أمرًا يؤلمه ويشق عليه: ثم جلس وانطلق يكتب:

«الجمعة ١٢ مايو الساعة ٥ مساءً.

شكرًا لله .. تحسنت حالة مادلين، وهي الآن نائمة. وقد رأيت الدم يسري في وجنتها شيئًا فشيئًا، وأنفاسها تزداد هدوءًا وإنتظامًا. ثم قبلت جبينها الملتهب وغادرت المخدع على أطراف أصابعي. وهأنا أختلي الآن بضميري الذي يتهمني ويلج في الإتهام. أجل .. لقد كنت جائرًا حينما أهويت على قلبين طاهرين متحابين بضربة عنيفة في غير شفقة ولا رحمة. وللمرة الثانية أمرته بالانقطاع عن بيتى، وهو ولد أعز أصدقائي. ولعله لا يدري حتى الساعة مقدار ما يملأ صدري من الشر والخبث، ولعله لا يعرف كذلك سبب ما يلقاه مني من القسوة والهوان. وما الذي يحملني على ذلك حقًا؟ إني لا أجسر على الإعتراف به حتى لنفسي!

ذلك لأني غيور؟ ليس في وسع جميع الناس أن يفهموا قولي، ولكنه لن يستعصي علي فهم كل والد.. إنني أغار من ابنتي ومن حبها، ومن مستقبلها، ومن حياتها. لشد ما يؤلمني هذا الاعتراف، ولكنه الحق الذي لا ريب فيه. إنني طبيب، وكثيرًا ما وقفت على دفائن الصدور ومكنونات الضمائر في ساعات الإحتضار، ولكن تحليل عواطف المرء من أشق الأمور عليه فإذا ما فكرت في أمر إبنتي وأنا بعيد عنها وعما يثيره مرآها في نفسي من الأهواء والنزعات، عقدت عزمي على قهر النفس وإخضاعها. بيد أني لا أكاد أراها تنظر إلى أموري نظرة شغف وغرام حتى أحس أنني لم أعد أشغل من قلبها إلا منزلة ثانوية وقد استأثرت بفؤادي كله، فتعاودني أنانية الأبوة الغريزية، ويتلظى صدري غيظًا وحقدًا. وما تأتي مادلين مع ذلك إلا أمرًا طبيعيًا لا غبار عليه. فانه في الثالثة والعشرين وهي في التاسعة عشرة، وقد كنت أثناء طفولتها أتطلع إلى الساعة التي تزف فيها إليه، حتى لأسائل الآن نفسي أينطبق مسلكي الحاضر على أحكام المنطق والعقل، وهل هو خليق برجل مثلي له مكانته في العالم العلمي.. إنهم يعدونني حجة في العالم العلمي، لأني كنت في مقدمة من نفذوا إلى خفايا الجسم البشري وإطلعوا على أسراره، ولأني أستطيع معرفة الداء من نبض المريض، ولأني فوق ذلك قد نجحت في شفاء أمراض يئس منها غيري من مشاهير الأطباء. ولكن ما أعجزني عن شفاء الداء الذي يملك على مذاهب التفكير والسداد! وهلا توجد أمراض أخرى تقصر عن معالجتها براعة الإنسان وعلمه كذلك الداء الوبيل الذي هصر عود المرأة الوحيدة التي أحببتها: والدة مادلين؟ نعم ..

إن زوجتك الشابة الحسناء لتنتزع منك إنتزاعًا وترد إلى بارئها ولا تخلف لك من أسباب الأمل والعزاء غير ملك صغير هي صورة مصغرة منها، فتتعلق بهذه الوحيدة تعلق الغريق بالخشبة الطافية، وتقبل يدها الصغيرة التي تعيدك إلى الحياة والحب. وإن هذا العالم الذي تكتنفه الوحشة والظلام بعد وفاة أمها، قد صار يعج بالحركة والحياة في حضرتها، وتفيض عليها كل ما في وسعك من الحب والعناية فلا تغفل عنها لحظة. ولا تنفك عن ملاحظة نبضها وتنفسها .. فإذا مستها الحمى شعرت بوقدتها في دمك، و كم من مرة دافعت عنها شبح الموت الرهيب حتى أتعبك النضال. ولكنك لا تقنع بنجاتها من مخالب الردى، بل تريد أن تصب حياتها وأخلاقها في القالب الذي يرضى عنه حبك ليا وكلفك بها. وهيهات أن تكتفي لها بما حبتها به الطبيعة من جمال وطهر وذكاء.

وهكذا تمضي في العناية بها والسهر عليها وهي تنمو وتشتد، حتى إذا ما صارت رطانتها نطقًا، وإنتقلت من الهجاء إلى القراءة لم يعد يروقك غير ما يروقها، وغدت الأساطير وقصص الأطفال أحب إليك من روائع البيان وغرر الأشعار، وقد تكون في حديقتك مع رجل من أساطين السياسة أو فحول الشعراء أو جهابذة العلماء، وهو يتحدث إليك ويفيض في الحديث في شأن من شئون السياسة أو الأدب أو العلم، دون أن يدور في خلده أنك منصرف عن حديثه لا تفكر في غير تلك الطفلة اللاهية على شاطيء الغدير لا يشغلك سوى الخوف من أن تزل قدمها فتسقط في الماء أو تؤذيها أنداء المساء! وهيهات أن تخلو من الإشفاق عليها لحظة واحدة فإنك تعلم أن المنية قد طوت أمها وهي في الثالثة

والعشرين بداء من تلك التي لا تفلت فريستها منها «على أن مادلين لاتزال تشتد. وتقوى فيتفتق ذهنها وتتسع آفاق إدراكها وتفقه أقوالك عندما تتحدث إليها عن الأدب وعن الطبيعة وعن الله. وإنها لجميلة يأخذ جمالها باللب ولكن ألا ينبغي أن تكون كذلك واسعة الثراء؟ إلى العمل إذن! ولا بأس في سبيلها بالشح بعد الكرم والسخاء، ولكن لها من شهرتك المستفيضة تاجاً لامعاً، ومن ثمرات كدك الدائب ذخراً باقياً.

ولكنك لا ترضى لها بإكتناز المال وتكديس الذهب فحسب، إن ساقيها لا تقويان على حملها، فيجب أن تقتني لها مركبة وإن كلفتك ما جمعته في شهر كامل من العمل الشاق المضني. وما دامت قد أصبحت لها ضيعة ومركبة، فينبغي أن تحصل كذلك على ما يناسب جمالها وثروتها من ثمين الحلى والمجوهرات. وأي والد لا يضني نفسه في سبيل توفير أسباب الزينة والبهاء لابنته، ولكنك سعيد راضٍ وإن أنهك العمل قواك، وأحنى النصب هامتك، فإن هي إلا أشهر معدودات حتى تصير الطفلة إمرأة تفهم كل ما يعتلج في خاطرك ويجيش بصدرك. سوف تغدو إذ ذاك الصديق الوفي الأمين، بل سوف تكون أكثر من صديق، ولن يفسد عرض من أعراض هذه الحياة حبك لها أو حبها لك.

أجل! عليك بالصبر قليلاً تحصد ما غرست، ويتبدل كدك وعناؤك إبتهاجاً مستفيضاً لا ينتهي عند غاية. ولكن هذه اللحظة المرتقبة لا تكاد تأزف حتي يمر بك عابر سبيل فيرى إبنتك، وليس عليه إلا أن يهمس في أذنها كلمتين إثنتين فتؤثره بإسمي منزلة من فؤادها، وتتركك لتلتحق به، وتضع بين يديه حياتها وهي حياتك أيضاً! فماذا تفعل أنت؟ ليس لك أن

تفتح فمك بكلمة عما يعتلج في صدرك من الحزن، وعليك أن تستقبل زوج إبنتك بادي الابتسام وإلا سلقك الناس بألسنة حداد. زوج إبنتك! بل قل هذا اللص الذي يسلبك سعادتك وهناءك!

إنها لتهجرهم إلى سواهم فيصبحون «هذه جريمة» ولكنها قد هجرتنا قبل ذلك من أجلهم فما رأوا في فعلها غير أمن طبيعي لا غبار عليه!

إن العشاق يموتون، أما الآباء فيضحون بأنفسهم، فلنبذل إذن هذه التضحية الأخيرة، وهي أقسى ما كابد الآباء من ضروب البذل والتضحية. وليست لنا من حيلة في تقبلها والرضا بها ولو كان دونها عذاب الجحيم، فما يجمل أن تدنس الأثرة والأنانية أعظم ما على هذه الأرض قداسة وكرماً، وأبعده عن الغرض والهوى ألا وهو حب الوالد لولده.

فلنزد هذه الفتاة من حبنا وعطفنا ما زادت في الصد عنا، ولنحب من تحبه، ولنعطها راضين مسرورين إلى هذا الذي يسلبنا إياها، وبالإجمال سيقترن أموري بمادلين في مدى ثلاثة أشهر، إلا إذا... يا إلهي! ما أجرؤ أن أكتب أكثر من ذلك!

ولقد سقط القلم من بين أصابع المسيو دافريني عندما كتب هذه الكلمات، فزفر في حزنٍ وأسىً ثم أخفي وجهه بين راحتيه.

عاطفة الغيرة القبيحة

في تلك اللحظة دخلت انطوانيت تمشي على أطراف أصابعها ثم دنت من المسيو دافريني ومست كتفه مساً رقيقاً فرفع رأسه ثم قال: ها أنت يا عزيزتي انطوانيت.. مرحباً بك.

– إني أريد محادثتك في أمر لا يلائم سني ولا مركزي.

– قولي ما تشائين يا انطوانيت، تكلمي.. ولاسيما إذا كان حديثك خاصاً بإبنتي.

– لقد أصبت يا خالي، فإني أريد التحدث عنها، وإني لأرجو أن تصفح عني، ولكني لا أجد مفراً من مصارحتك أنك بإسرافك في حبها والتعلق بها سيقتلها وتقضي عليها.

– أنا أقتل مادلين.. ماذا تعنين؟

فلاحت إبتسامة حزينة على ثغرها وقالت: ليس في وسعك يا خالى العزيز أن تطمس أبصار من أضاء الحب قلوبهم، وقد قرأت السر الذي تطويه في أعماق فؤادك.

– وما هو السر الذي وقفت عليه؟

فترددت أنطوانيت هنيهة ثم أدنت شفتيها من أذن الطبيب وهمست:

– أنك غيور!

وهتف المسيو دافريني: أنا!

فاستطردت الفتاة قائلة: أجل.. وهذه الغيرة سبب جورك وعسفك.

فقال وهو يطرق برأسه: يا إلهي .. كنت أظن أن سري لا يعلم به سواي!

– حسناً! وما الذي يزعجك كل هذا الإنزعاج يا خالي العزيز؟ إن الغيرة عاطفة قبيحة بلا ريب، ولكن المرء يستطيع قهرها والتغلب عليها. ألم أشعر أنا أيضاً بالغيرة من أموري؟

– أنت تغارين من أموري؟

فأجابت انطوانيت وهي تطرق برأسها بدورها: نعم؟ إنه يستأثر دوني بأختي، فإن مادلين لا تنظر إلى أحدٍ سواه مادام حاضراً.

– لقد شعرت إذاً بمثل ما أعانيه.

– أجل.. ولكني قد قهرت عاطفتي وتمكنت من حمل نفسي على المجيء لكي أقول لك: أي خالي.. إنهما شديدا التعلق ببعضهما وينبغي أن توافق على زواجهما وإلا قتلهما الحزن. وهز المسيو دافريني رأسه دون أن ينبس بكلمة، وأشار إلى دفتر يومياته فقرأت انطوانيت آخر السطور التي خطها:

«سيقترن أموري بمادلين في مدى ثلاثة أشهر، إلا إذا.. يا إلهى.. ما أجرؤ أن أكتب أكثر من ذلك!»

وقالت انطوانيت: لا تجزع يا خالي العزيز، فإن مادلين لم تسعل مؤخرا.

فصاح المسيو دافريني وهو يحملق فيها مدهوشاً:

– ياللسماء.. إن الفتاة لتستشف كل ما يجول في خاطري من الأفكار!

– إني لأعرف ما تضمر لها من الحب الشديد، ولكن ألا يخلق بنا أن نعود أنفسنا التفكير في أن مادلين لابد أن تتزوج يوماً ما وتفترق عنا؟ أفليس من الخير أن يقع اختيارها على أموري دون سواه؟ ثم إنك لن تكون بعد زواجها وحيداً منفرداً يا خالي العزيز، فستبقى إلى جانبك إبنة أختك العزيزة، تلك الفتاة الصغيرة التي تحبك وتحبك وحدك، والتي لن تفارقك قط.

فقال المسيو دافريني: ولكن أليس فيليب أوفراي مفتوناً بك، وهلا تحبينه أنت؟

–كيف تظن يا خالي العزيز.. كيف يخطر ببالك ؟

– حسناً.. لن تعود إلى هذا الموضوع فعل يا إبنتي العزيزة.. سأفعل ما تشيرين به، وقد عقدت عليه العزم في الحقيقة.

وهنا دخل خادمه الخاص جوزيف وأعلن أن جرمين خادم أموري كونت دى ليوفيل يستأذن في مقابلته ليسلمه كتاباً خاصاً من سيده. وتبادل المسيو دافريني وانطوانيت نظرة كأنهما يقولان أنهما يعرفان ما

يتضمنه الكتاب، ثم أمر المسيو دافريني خادمه جوزيف بأن يحضر الكتاب ويطلب إلى جرمين إنتظار الرد.

وبعد خمس دقائق كان الكتاب بين يديه وهو لا يجرؤ حتى على فضه، فقالت انطوانيت: هيا يا خالي العزيز. إفتحه واقرأ ما يقول:

وأطاعها المسيو دافريني، وبعد أن تصفح محتويات الكتاب مسرعاً قرأه مرة أخري ثم دفعه إلى انطوانيت فأبعدته بيدها وهي تغمغم: إني أستطيع إدراك ما فيه يا خالي العزيز.

قال: هذا حق

ثم أردف متمثلاً بقول هاملت لبولونيوس:

– كلام.. كلام.. كلام..

فقالت انطوانيت:

– ألا ترى في الكتاب إذن غير كلمات لا تنطوي على شيء؟

ثم أخذت الرسالة من يد خالها وراحت تنظر فيها على عجل.

وقال المسيو دافريني: بلى! إنها مجرد كلمات،! ولكن هؤلاء المتزلفين يأخذون مكاناً من أفئدة بناتنا بالكلمات المعسولة واللفظ المنمق. إننا نحبهن دون أن نرجو على حبنا ثواباً، ولكنهن يؤثرن علينا آيات البلاغة والبيان!

فقالت أنطوانيت وهي تعيد إليه الرسالة:

– لا تخدع نفسك يا خالي.. فإن أموري يحب مادلين حباً عميقاً صادقاً.

– إذن يا انطوانيت..

فأعطته القلم، وكتب هذا السطر:

(عزيزي أموري – تعال إلي غداً في الساعة الحادية عشرة.

(أبوك : ليوبولد دافريني)

وسألته انطوانيت:

– ولماذا لا يكون هذه الليلة ؟

– لأن هذه الإنفعالات فوق ما تستطيع هي أن تحتمل في يوم واحد. وليس عليك من بأس يا انطوانيت أن تنبئيها بأكثر من أنني كتبت إليه هذا المساء، وأنت تظنين أنه قادم في الغد.

لهفة وقلق

صحت مادلين مع إشراق الشمس. فاستدعت خادمتها لتفتح النافذة. وتضوع في المخدع نشر زهور الياسمين من شجرة كبيرة كانت فروعها تتسلق الجدار إلى حالة النافذة. وكانت مادلين مولعة بالروائح الذكية على سوء تأثيرها بصحتها فطلبت إلى الخادمة أن تأتيها بطائفة من زهور الياسمين. أما انطوانيت فكانت إذ ذاك تتمشي بالحديقة. ولا تتنقل في هذا الصباح بين الزهور كالفراش والنحل وإنما هي تسير مطرقة وعلى محياها دلائل الهم والتفكير. اتكأت مادلين على مرفقها وراحت تنظر إلى إبنة عمتها وهي تسير في الحديقة فلما رأتها تختفي لحظة عند مدخل البيت ثم تظهر ثانية وقد إبتعدت عنه عادت إلى ضجعتها وهي تتنهد. وكان المسيو دافريني قد فتح الباب بخفة وتسلل إلى المخدع ووقف ينظر إلى صراع إبنته الصامت مع ما يقوم في صدرها من الحسد فسألها:

– ماذا بك يا ابنتي ؟

أجابت:

– أعتقد أن انطوانيت فتاة سعيدة حقاً. هي حرة كالنسيم تغدو وتروح أنى شاءت، أما أنا فأسيرة مقيدة يؤذيني حر الظهيرة وبرد المساء والصباح. أني لأشبه ذلك النبات الضعيف المسكين الذي لا يخرج أبداً

من البيوت الزجاجية. أسبب هذا أنني مريضة يا أبي؟

– قد أصبت في قولك أنك كالنبات الذي يعيش في بيت من الزجاج. على أنه ينبغي أن تتذكري يا عزيزتي أن الزهور التي نحتفظ بها في البيوت الزجاجية هي أثمن الزهور وأعزها علينا. وماذا يضيرها من هذه البيوت؟ لا أليست تستمع بالشمس والهواء، ولكنها في مأمن من تلك الرياح التي تؤذي غيرها من الزهور ؟

– كنت أوثر أن أكون زهرة من الزهور التي تثبت بالحديقة أو على جوانب المماشي مثل انطوانيت، على أن أكون من هذه الزهور الثمينة الضعيفة. أنظر كيف يعبث النسيم بشعرها ويرطب جبينها بينما يلتهب جبيني إلتهاباً.

وجذبت يده فوضعتها على جبينها فقال: إنما أحذر عليك يا إبنتي من الهواء لأن جبينك ملتهب. فإذا ما شفيت من مرضك، فسأجعلك تجرين كما تشاءين مثل انطوانيت. وإذا كنت تؤثرين العيش في الهواء الطلق فسآخذك إلى إيير أونيس أو نابولي حيث ينمو التفاح الذهبي، وحيث تستطيعين التجول كيف شئت..

فقالت مادلين وهي تنظر إلى أبيها في ضراعة:

– هل.. وهل.. هل يأتي معنا؟

– أجل.. بلا ريب يا عزيزتي.

– ولن تعنفه كما فعلت بالأمس ؟

– طبعاً لا.. وها أنت ترين أنني لم أعد غاضباً حانقاً إذ كتبت إليه بزيارتنا كسابق عهده.

– قد أحسنت يا أبي.. فإنك إذا منعته من حبي، فسيحب انطوانيت.. وإذا أحب انطوانيت.. فإني أموت حزناً وكمداً.

فقال المسيو دافريني وهو يضغط على يدها في حنان:

– لا تتحدثي عن الموت قط.

– إنني غير راغبة في الموت، فإني لأعظم سعادة من أن تخامرني في مثل هذه الرغبة.. وفوق ذلك، ألست أشهر أطباء باريس على الإطلاق ؟ أنك لن تدع إبنتك تموت.

فتنهد المسيو دافريني فى حزن شديد وقال:

– لو أنني أملك هذه القوة يا إبنتي العزيزة لكانت أمك معك الآن.. ولكن لماذا تظلين حتى الآن في فراشك؟ لقد بلغت الساعة العاشرة، وسيحضر أموري في الحادية عشرة..

– أجل يا أبي.. ولكني سأطلب إلى انطوانيت مساعدتي في إرتداء ثيابي، وسأكون مستعدة بعد قليل، إنني لا أشعر بالراحة والهدوء إلا حين أكون في الفراش.. أما حين أنهض فسرعان ما يعتريني التعب.

– هل شعرت يا مادلين بشيء من المرض في الأيام الأخيرة دون أن تنبئيني؟

– كلا يا أبي. وإنك لتعلم أنه لا يعتريني مرض حقيقي قط، وأشعر

أحياناً بوعكة كوعكة الحمى. على أنني الآن في أحسن حال فإنك معي وسأرى أموري ثانية. ما أسعدني..

– أنظري.. ها هو عزيزك أموري قد أقبل.

– أين هو؟

– في الحديقة مع انطوانيت، لا ريب أنه أخطأ فقرأ الساعة العاشرة بدلاً من الحادية عشرة!

وهتفت مادلين وهي تسرع بالجلوس في فراشها:

– في الحديقة مع انطوانيت..أجل.. أرجو أن تطلب إلى انطوانيت المجيء في الحال يا أبي فإني أريد إرتداء ثيابي.

ونادى المسيو دافريني انطوانيت من النافذة، فاختبأ أموري خلف الأشجار وهو يرجو ألا يكون قد رآه أحد، إذ لم يكن يريد أن يعرفوا أنه جاء قبل الموعد بساعة.

وجاءت انطوانيت فغادر المسيو دافريني المخدع، وبعد نصف ساعة كانت انطوانيت بالحجرة وحدها، بينما كان المسيو دافريني ومادلين ينتظران أموري في قاعة الاستقبال الصغيرة التي شهدت بالأمس ذلك المشهد الأليم.

وسرعان ما أعلن حضور الكونت دي ليوفيل رسمياً، وظهر أموري على باب القاعة فتقدم المسيو دافريني لاستقباله مبتسماً. ومد إليه الشاب يده في تهيب وتردد، فقبض عليها، وسار به إلى مادلين قائلاً:

– مادلين.. أقدم لك أموري دى ليوفيل قبل زوجك في المستقبل.

ثم التفت إلى الشاب قائلاً:

– هذه مادلين دافريني وزوجتك المستقبلية.

هتفت مادلين في ابتهاج، وجثا أموري أمام الأب والإبنة، ولكنه سرعان ما هب واقفاً إذ رأى مادلين تترنح على المقعد الذي أسرع المسيو دافريني بوضعه خلفها فقد كان للفرح والابتهاج من شدة الوقع عليها مثل ما يكون للحزن والأسى.

فلما تمالكت قواها فتحت عينيها فرأت أموري جاثياً عند قدميها يغمر يدها بالقبلات وأباها يضمها إلى صدره في حنان وهو يناديها بأحب الأسماء فكان لأبيها منها أول قبلة، ولحبيبها أول نظرة. وشعر الرجلان في تلك اللحظة بالغيرة تنهش فؤديهما نهشاً.

قال المسيو دافريني: إنك أسيري بقية اليوم يا ولدي العزيز، وسنقضيه نحن الثلاثة معاً في تدبير الخطط وتشييد القصور في الهواء.

وانتقلا إلى الحديث في موعد الزفاف، وكان أموري أول الأمر شديد اللهفة لا يطيق تأجيل هذا الموعد إلى أمد طويل، بيد أنه لم يلبث أن أذعن لإرادة المسيو دافريني إذ اقتنع بما لديه من الحجج، وتم الإتفاق بينهما على إعلان الخطبة في مدى أسبوع، وإتمام الزفاف بعد شهرين. وبعد ذلك نهض المسيو دافريني وأشار إلى أموري بأن يتبعه. وتقدم المسيو دافريني نحو الباب فانتهز أموري هذه الفرصة وقبل وجنة مادلين

في شغف وحنان. وبعد أن فرغ المسيو دافريني من حديثه عن كل ما يتصل بالزواج من الشئون والمعدات، أشفق على ربيبه مما يعتمل نفسه من اللهفة والقلق وأذن له بالانصراف ليلحق بخطبيته.

جرس المساء

لم يجد أموري عند عودته إلى قاعة الاستقبال سوى انطوانيت، التي سارت نحوه قائلةً:

– حسناً.. إنك الآن سعيد جداً يا عزيزي أموري، أليس كذلك؟

– أجل يا عزيزتي انطوانيت، وقد أطلعتني على طرف من الحقيقة في هذا الصباح، ولكن لم يخطر ببالي قط أنني سأظفر بهذا كله.

ثم أخذ بيد الفتاة وعاد بها إلى مقعدها قائلاً:

– ولكن متي يتاح لي أن أهنئك أنت؟

– تهنئني؟

– نعم..

فقالت انطوانيت في حزن:

– هذا اليوم يا أموري سيظل أبرز أيام حياتك كلها، وهأنا أصارحك بأني لن أتزوج!

وراع أموري ما في لهجتها من الجد والحزم فقال مازحاً:

– ما هذا الهراء أني أعرف ذلك المخلوق السعيد الذي سيحملك على تغيير رأيك.

أجابت انطوانيت بابتسامة حزينة:

– أني أعرف من تعني. ولكنك مخطيء يا أموري، فإن الذي تشير إليه لا يفكر في قط. ليس بين الناس من يرغب في يتيمة معدمة، ولست أرغب في أحد.

– معدمة .. إن لك بائنة قدرها مائتا ألف فرنك.

– لست أجهل يا أموري طيبة قلب خالي وكرم أخلاقه، وليس من شأن هذا الدليل الجديد على سخائه وكرمه أن يحملني على الكفران بنعمته أنه سيغدو وحيداً منفرداً.. وسوف أبقى معه إذا سمح لي وستكون حياتي بعده لله.

ورأى أموري من حزمها ما أقنعه بعبث مجادلتها في رأيها فشد على يدها في رفق إذ كان يحبها حب الأخ لأخته، لكنها سحبت يدها فجأة.. فدهش من حركتها هذه.. وإلتفت خلفه وإذا مادلين واقفة في الشرفة ترنو إليهما وقد غاض اللون من وجهها حتى بات يحاكي الوردة البيضاء التي وضعتها بشعرها. هرع إليها هاتفاً:

– أمريضة أنت يا حبيبتي؟

أجابت:

– كلا يا أموري. بل انطوانيت هي المريضة فانظر إليها.

قال:

– أجل. وقد كنت أسألها الآن عن سبب حزنها.

ثم أردف هامساً:

– هى تقول أنها لن تتزوج. فهل يمكن أن تكون عاشقة؟

أجابت مادلين وفي عينيها نظرة عجيبة:

– لا ريب أنك أصبت في حدسك يا أموري ولكن هيا بنا إليها فإن حديثنا همساً يريبها.

وقد كانت انطوانيت في الحق قلقة مضطربة.. وأصرت على مغادرة القاعة برغم إلحاحهما عليها في البقاء بدعوى أنها تريد الكتابة. تنفست مادلين الصعداء بعد إنصراف انطوانيت. وراح العاشقان فيضان في الحديث عن المستقبل وما يوشك أن يحمل إليهما من ألوان السعادة وصنوف المتع والمسرات، والساعات تنقضي سراعاً دون أن يشعرا بها حتى أظل المساء. وقرع جرس العشاء فأقبل المسيو دافريني وانطوانيت من بابين مختلفين. وكان أموري مستلقياً عند قدمي مادلين. ولكن المسيو دافريني لم يغضب الليلة السابقة. بل أشار له بالبقاء حيث هو.. وظل يحدجهما بنظره لحظة ثم سار إليهما ماداً يديه لهما وهو يقول: ولدي!. ولدي العزيزين!

وكانت انطوانيت طوال العشاء تفيض طلاقة وبشراً، غير أن الناقد الخبير لم يكن يسعه إلا أن يتساءل عما ينطوي تحت لك المظاهر الخلابة المتكلفة من أسى دفين وحزن دفين. أما مادلين وأموري فقد كانا من السعادة في نشوة تنسيهما كل ما حولهما. ولم يعد المسيو دافريني يقوى على كبح مشاعره وهو يرى إبنته تهبه نصيبه من حبها وعطفها

بموافقة أموري، فأوى إلى مخدعه في الساعة التاسعة زاعماً أنه متعب منذ الليلة السابقة. وقبل إنصرافه من الغرفة سار إلى إبنته وتناول يدها يجس نبضها وسرعان ما أضاء وجهه بنور السعادة والسرور حين رأى الدم يجري في عروقها في هدوء ويسر، وليس في نبضها ما يشف عن اضطراب وقد التمعت عيناها سعادة وتهللا وذهب ما كان فيهما من بريق الحمى. وإنثنى إلى أموري فعانقه وهو يغمغم: أوه .. ليتك تستطيع إنقاذها!

وإنصرفت انطوانيت في أثره دون أن يحس بها العاشقان، وفي الساعة الحادية عشرة دنت مس براون من مادلين ونبهتها إلى أن أباها لم يكن يسمح لها قط بالسهر إلى ما بعد هذه الساعة.

وعاد أموري إلى بيته وهو يشعر أنه أسعد الناس.

الفرصة المنشودة

في صباح اليوم التالي صحا أموري مسرورا، فأنبأه خادمه أن صديقه فيليب أوفراي يطلب مقابلته، فأمر بإدخاله في الحال. وكان فيليب لايزال مرتديا ملابس المساء السوداء، فعلم أموري أنه لم ينم بعد، وظل واقفاً حتى غادر الخادم الغرفة، ثم قال لأموري في صوت حاد:

– والآن هل ترى نفسك أكثر ميلاً للإصغاء إلى مما كنت منذ يومين؟

– أرجو ألا تغضب من التأخير، فقد رأيتني على وشك الجنون عندما زرتني منذ يومين، ولكنني مسرور أشد السرور برؤياك الآن، فإجلس وتحدث عما يشغلك ويثقلك.

– تذكر يا صديقي بأني محام، فأرجو أن ترجئ كل ما يعن لك من الملاحظات حتى أفرغ من حديثي، ولن أتجاوز ربع الساعة.

فقال أموري ضاحكاً:

– حذار إذن.. إن الساعة الآن التاسعة وعشر دقائق.

فقال فيليب وهو ينظر في ساعته:

– إن هذه الساعة متقدمة خمس دقائق.

فقهقه أموري وهو يقول:

– أواثق أنت من أن ساعتك ليست متأخرة؟ أنك لتذكرني دائماً يا عزيزي فيليب بذاك الرجل الذي ولد متأخراً يوماً واحداً، فأنفق عمره كله مجداً في اللحاق بذلك اليوم!.

أجاب فيليب:

– إنني ولله الحمد قد جئت هذه المرة في الوقت المناسب فيما أظن.

– حسناً.! أمض في حديثك وهأنا مصغٍ إليك.

– أتذكر يا أموري أول سنة أنفقناها معاً في الاستعداد للمحاماة؟ كنا إذ ذاك قد تخرجنا في الجامعة حديثاً، وليس في الحياة كلها ما يستغرق اهتمامنا في القانون وما يتصل به من علوم ودراسات حتى لقد خيل إلي أنني سوف أقضي حياتي أعزب لا يشغلني عن هذه الدراسات شأن من شئون الحياة.. على أني نسيت في حسابي الشيطان والربيع والشباب وكانت عاقبة هذا النسيان أصيبت الخطة التي رسمتها بصدمة عنيفة.

كانت أمام نوافذ غرفتي نافذتان أخريان يبدو فيهما بين الفينة والفينة وجه متجهم لمخلوقة دميمة هائلة بلغت من الكبر عتياً.. ولم يكن يعيش مع تلك المرأة غير كلب يعادلها دمامة وقبحاً، فلا تكاد النافذة تفتح حتى يضع مخلبيه على كتفها، ويحدق في تحديقاً غريباً من خلال شعره الشعث الطويل وشعرت بأشد النفور من الكلب وصاحبته، وقد كان الفضل فيما أصبت من النجاح في دراساتي تلك السنة يعود إلى إغلاق نوافذي دائماً وإنصرافي إلى الدرس حتى لا يقع بصري عليهما!

وشد ما كان سروري عندما رأيت في أوائل مارس لوحة معلقة على ذلك المسكن بأنه يراد تأجيره لفصل الربيع، وأخذت أترقب حلول أول أبريل في لهفة وضجر أملاً في التخلص من جارتي الهائلة التي ظللت أعاني جيرتها ووجهها النكد عامين كاملين.

وفي الحادي والثلاثين من شهر مارس تلقيت دعوة من عمي الكريم الذي ورثت عنه فيما بعد دخلا سنوياً مقداره عشرون ألف فرنك.. لقضاء اليوم التالي –وكان يوم أحد– بقصره الريفي في أنفيان.

ولما كنت متأخراً في أعمال الأسبوع فقد صرفت شطراً كبيراً من الليل في إنجازها حتى لا أتخلف عن رفاقي، وهكذا استيقظت صباح اليوم التالي في الساعة الثامنة بدلاً من السابعة، ووصلت في الحادية عشرة بدلاً من العاشرة.

وكان الجو صحواً واليوم جميلاً رائعاً، فاتفقنا على القيام بنزهة في البحيرة، وسبقني المدعوون إلى الرصيف الصغير بعد أن منحوني مهلة عشر دقائق. ولكني لسوء الحظ تجاوزت المهلة الممنوحة لي بنحو دقيقة ورأي المدعوون أنه قد آن لهم أن يستقلوا الزورق.

ولم أكد أبلغ باب القصر حتى رأيتهم بالزورق وهم يرفعون المرساة، فركضت إلى الرصيف الصغير قبل أن يبتعدوا عنه أربع خطوات، وعولت على أن أحيل ضحكات السخرية التي إستقبلوني بها إلى صيحات أعظام وإعجاب، فوثبت من فوري إلى الزورق ولكني لسوء الحظ سقطت في الماء.

وكان الماء شديد البرودة لسوء الطالع، فبلغت الشاطيء مرتعداً، وانتابتني بعد ذلك حمى ألزمتني الفراش ثلاثة أيام في أنفيان. وفي مساء اليوم الثالث أعلن الطبيب أنني عوفيت تماماً من الحمى، وأومأ إلى عمي أن هذا التأخير قد يكون سيىء الأثر في نتيجة الامتحان الذي أتأهب لدخوله، فقمت إلى باريس في الحال، وما وافت الساعة العاشرة مساء حتى كنت في غرفتي بشارع سان نيكولا دوشاردونيريه.

ولقد طرقت بابك قبل ذهابي إلى غرفتي، ولكنك كنت في الخارج أو نائماً. وقد تذكرت هذا الأمر فيما بعد، وإن كنت لم ألق إليه بالاً في ذلك الحين.

– ولكن ما الذي ترمي إليه من وراء هذا الحديث؟

– سترى عاجلاً. أويت إلى فراشي محترماً غيابك أو نومك، وسرعان ما استغرقت في نوم ثقيل شأن الناقة الذي أنهكه المرض. وإستيقظت وشدو الأطيار يملأ أذني، فخيل إلى أنني لا أزال بالريف، وفتحت عيني وأنا موقن أن ما أسمع ليس إلا بقية من أثر الحمى، ولكني كدت أصعق دهشة وعجباً عندما رأيت الأمر حقيقةً لا خيالاً.

كنت قد أغفلت أسدال الستائر على نوافذ غرفتي، فأبصرت في النافذة المقابلة لي غادة هي أجمل ما وقعت عليها عيني وسما إليها خيالي، وقد بدا محياها المشرق في إطار زاه من الورود والأزهار، وعكفت على تزيين قفص به أنواع مختلفة من الطيور الغردة بالزهور الحمراء.

وإنك لتعلم يا صديقى مقدار شغفي بالصور الجميلة الرائعة، وأكبر ظني التي أنفقت زهاء الساعة في تأمل هذه الصورة البهيجة، وقد زاد من جمالها وروائها في عيني أنها حلت محل تلك العجوز الشوهاء وكلبها البغيض، وشعرت منذ ذلك اليوم أنني واقع في شراك هواها لا محالة، فعولت على إنتهاز أول فرصة لإشعارها بذلك.

وقال أموري وهو يغرق في الضحك: أرى يا عزيزي فيليب ما ترمي إليه، ولكني أرجو أن تكون قد نسيت هذا الحادث التافه الذي كان من سوء الحظ إن وقفت فيه منك موقف المزاحم، وأن سبقتك إلى الغاية التي تخاصمنا عليها بثلاثة أو أربعة أيام.

– بل إني بعكس ذلك تماماً يا عزيزي أموري لا أزال أذكر كل دقيقة من دقائقه، وخليق بي أن أذكرك بما قد تكون نسيته منها حتى تعرف عظم إساءتك إلي.

– أجئت إذن تدعوني إلى المبارزة لتسوية الحساب القديم؟

– كلا.. إنما جئت أسألك أن تسدي إلي يداً. ولكني أريد أن أبدأ بذكر تاريخي الماضي حتى تعلم أنك مدين لي بالتعويض عن كثير من الإساءات، فضلاً عن صداقتنا التي توجب عليك مساعدتي.

– حسناً! عد إلى قصة فلورنس.

– أكان إسمها فلورنس؟ ما أجمله من إسم، لعلك لا تصدق أني كنت أجهله حتى الساعة ولكن لنعد إلى قصة فلورنس كما تدعوها.

عقدت عزمي في الحال على أمرين، أما الأمر الأول، فهو الإندفاع في حب جارتي الحسناء بكل ما أوتيت من قوة، وهو أمر لا مشقة فيه ولا عسر فشرعت في إنفاذه من فوري.

أما الأمر الثاني فكان مصارحتها بهواي في أول فرصة، ولم ليكن تنفيذه في سهولة الأمر الأول، إذ كان على أن أجد الفرصة أولاً، ثم إنتهزها بعد ذلك.

وظللت أراقبها ثلاثة أيام.. ففي اليوم الأول من خلال الستور لئلا تجفل من ظهوري لها فجأة. ومن خلف زجاج النافذة في اليوم الثاني لأني لم آنس من نفسي الجرأة على فتح النافذة. وفي اليوم الثالث فتحت النافذة فكدت أطير سروراً إذا لم تروعها جرأتي.

ورأيتها في نهاية اليوم الثالث تضع وشاحاً خفيفاً على كتفيها وتتهيأ للخروج فعلمت أن الفرصة المنشودة قد سنحت، وعقدت عزمي على أتباعها.

توقيت غير مناسب

واصل فيليب كلامه: كنت أريد أن أعترض سبيلها، وأحدثها بما فعل بي أنفها الدقيق وإبتسامتها المشرقة وثناياها المتلألئة فتناولت عصاي وقبعتي وإرتديت معطفي ثم أسرعت هابطا الطوابق الخمسة التي يتألف منها البيت الذي أقيم به. فرأيتها تسبقني في الشارع فسرت في أثرها وكدت ألحق بها عندما إنثنت إلى باب في شارع فوجيرار، واجتازت الفناء مسرعةً وأخذت ترتقي السلم. فخرجت إلى الشارع حيث قمت على الرصيف المقابل للبيت بنوبة حراسة! وإنقضت ساعة، ثم ساعتان ونصف، دون أن يبدو لها أثر، فظللت في موقفي حتى أرخي الليل سدوله، ثم لمحت في الضوء الضئيل الذي ينبعث من مصباح غازي على السلم ثوب فاتنتي وأهداب معطف شاب معها، كما سمعت وقع عصاه على درجات السلم. قد يكون هذا الشاب أخاها، و يمكن أن يكون عشيقها. فآثرت الحذر ولزمت مكاني ساكناً حتى مرا بي دون أن يبصراني إذ كان الظلام حالكاً، وقد ألهمني ذلك خطة أخرى إذ خشيت ألا أجد من نفسي الشجاعة على التعرض لها إذا لاحت لي الفرصة، فعولت على الكتابة إليها، ومازلت أكتب ثم أمزق ما كتبت حتى في رأيي على الرسالة التي لا تزال معي. وأخرج فيليب الرسالة من محفظته وراح يتلوها:

«سيدتي بحسب المرء أن يراك مرة، حتى يغدو فؤاده أسيراً لك

طوال عمره. وإني لأراك كل صباح وأنت تطعمين طيورك، ويالها من مخلوقات سعيدة إذ تعني بها هاتان اليدان الجميلتان، وتروين ورودك، وهي دون ورد خديك تألقاً وحسناً، وأزهارك، وما يعدل أرجها المتضوع تلك الأنفاس الزكية التي يختلج بها صدرك. وهذه اللحظات القصيرة حقيقة بأن تملأ نهاري خيالاً، وليلي أحلاماً. وما تعرفين يا آنستي من أنا، وما أعرف كذلك من أنت، ولكن مثل هذا الحسن البارع يشف عن نفس شاعرة، فما أسعد الرجل الذي يتاح له تحقيق هذه الأحلام».

«وإنك لترين يا آنسة مقدار شغفي بك، فهل لم توح إليك نفسك في بعض نجواها أن بالقرب منك شاباً يعيش في وحشة وإنقباض على ما أوتي من الثراء، وإنه يتشوف إلى قلب يحبه ويفهمه، ويبذل دمه وحياته وروحه عن طيب خاطر لذلك الملك الكريم الذي يهبط من السماء ليملأ فراغ حياته! أن حبه لن يكون هوى عارضاً طائشاً. ولكنه سيكون عبادة دائبة في كل يوم وساعة ولحظة. وإذا كنت يا آنستي لم تريني قط. فهل لم تشعري بوجودي؟.»

«لذلك أتوسل إليك أن تغتفري جرأتي إذا إعترفت لك بما يثير مرآك في نفسي من العواطف العميقة الثابتة وكشفت لك عن حبي المتسعر الذي لا قيمة للحياة عندي بدونه. ولا يغضبنك إعتراف شاب يحترمك أصدق الإحترام، وإذا شئت أن تؤمني بصدق عاطفته فأذني لي أن أمثل بين يديك لأعبر لك عما أكنه لك من الحب الصادق والإحترام العميق.

وما أطلب منك على هذه الرسالة جواباً. فلست لأسمو بآمالي إلى هذا الأفق البعيد. ولكن حسبي منك كلمة أو إشارة أو حركة حتى أطير إلى قدميك وأظل هناك إلى أن ينصرم حبل حياتي.

فيليب أوفراي

شارع سان نيكولا دوشاردونيريه

بالطابق الخامس توجد ثلاثة أبواب.

وبابي هو المعلقة عليه رجل أرنب.

قال أموري: حسنا أن كتبت عنوانك دون أن تسألها رداً، فلعلها رسالتك تفاجئك بالرد.

– ظللت ثلاثة أيام أفكر عبثاً في وسيلة لإرسال كتابي إليها، وفي مساء اليوم الثالث انتهزت فرصة غيابها عن مسكنها، وجلست إلى نافذتي أتأمل غرفتها من نافذتها المفتوحة، وإذا بالريح تطير إحدى أوراق ورودها وتحملها عبر الشارع حتى تصطدم بزجاج إحدى نوافذ الطابق الذي تحتى. ولقد سقطت تفاحة على أنف نيوتن فهدته إلى قانون الجاذبية، وطارت ورقة الورد فهدتني إلى سبيل الاتصال بمعبودتي، وسرعان ما جئت بقضيب من الشمع وربطت حوله الرسالة، ثم قذفت بها نحو نافذتها فاستقرت في أرض غرفتها. وعند ذلك تولاني الفزع مما يمكن أن يفضي إليه عملي من العواقب الوخيمة إذا عادت الفتاة مع أخيها وعثرا على هذه الرسالة. وتواريت خلف الستائر ووقفت أراقب ما

يحدث، ولشد ما سررت إذا عادت وحدها، وراحت تخطر في غرفتها دون أن ترى الرسالة. وأخيراً وقعت عليها قدمها إتفاقاً، فإلتقطتها ودنت من النافذة كى تتبين مصدرها وقلبي يشتد في الخفقان، ثم أخذت تقرأها. ورأيت أن الوقت قد حان لظهوري حتى أعزز تأثير الرسالة، فبرزت من مخبأي وفتحت مصاريع نافذتي. فالتفتت على صوت فتح النافذة فأخذت أشير لها أني كاتب الرسالة. ورأيتها تعود إلى القراءة ثم تنظر إلى ثم تبتسم ثم تقرأ من جديد فتزداد ابتساماً، وما أتت على آخر الرسالة حتى إنفجرت ضاحكة.

وكدت أصيح جزعاً عندما رأيتها تهم بتمزيقها، ولكني لم ألبث أن تبينت ما في عملها من الحكمة. على أنها مضت في تمزيق الرسالة على وجه ينم عن الإزدراء والإستخفاف، فقد قطعتها قطعا صغيرة ثم قذفت بها على رءوس المارة، ثم ضحكت في وجهي ساخرة وأغلقت النافذة. فأغلقت نافذتي، وطفقت أفكر في كيفية التغلب على تمنعها. إستيقظت في صباح اليوم التالي وقد عقدت عزمي على الإنتظار حتى المساء، ثم أصعد إلى مسكنها وأطرقه فإذا ما فتحت لي أوصدت الباب من خلفي، وأعدت على سمعها ما ضمنته رسالتي. فإذا أصرت بعد ذلك على الإمتناع لجأت إلى وسائل أخرى أشد قوة.

لم تكن الجسارة تنقص الخطة وإن أعوزت صاحبها. فقد اندفعت صاعداً في سلم بيتها. وجذبت الجرس بيد مضطربة. ثم سمعت وقع أقدام مقبلة وفتح الباب فاندفعت إلى ردهة خافتة الضوء، وأوصدت الباب من خلفي وهتفت في صوت مهيب: مدموازيل. ولكني ما كدت

أنطق بهذه الكلمة حتى قبضت على يد قوية وسارت بي إلى غرفة استقبال رأيت بها الفتاة التي أسعى إليها، وسمعت صديقى أموري يقول: إسمحي لي يا فتاتي الصغيرة بأن أقدم لك صديقي الحميم فيليب أوفراي وهو فتى كريم النفس يتطلع إلى التعرف بك منذ زمن بعيد، وإنك لتعرف بقية ما حدث يا عزيزي أموري، فقد مكثت برهة دون أن أعي شيئاً مما يقال، ثم إنصرفت مشيعاً بعاصفة من ضحك مس فلورنس الحسناء، ورجائها إليّ في تكرار الزيارة.

فقال أموري: وأي خير في العود إلى ذلك الحادث؟ لقد أحسست منك إذ ذاك شيئاً من الجفاء والفتور، ولكنك صفحت عني فيما أعتقد.

– لقد صفحت عنك حقاً، ولكني أصارحك بأنني ما كنت لأفعل ذلك لولا أن وعدتني بتقديمي إلى بيت وصيك وبذل كل ما في وسعك من أجلى في المستقبل. وقد جئت الآن أذكرك بذلك الوعد.

فأجاب أموري ضاحكاً:

– عزيزي فيليب، إني لنادم على إساءتي، ذاكرا وعدى، مترقبا يوم الوفاء!

وقال فيليب:

– وقد حل يوم الوفاء. إن حبي مكين عميق ثابت لا تخبو شعلته إلا بانتهاء حياتي.

فابتسم أموري وقد مرت بباله انطوانيت وقال:

– أتريد من أن أقوم مقامك في الإفصاح عن حبك؟ من هي هذه التي تفتك وتستهويك؟

– إنها فتاة عريقة في النبل والشرف، ليس إلي الاتصال بها من سبيل سوى رابطة مقدسة أبدية. ولقد أحجمت طويلاً من الإفضاء بخبيئة نفسي حتى إليك أنت أعز أصدقائي، ولكني رأيت بعد طول التروي أنني من أسرة محترمة وأن لم أنحدر من أصل نبيل. وقد خلف لي عمي عندما مات في السنة الماضية عشرين ألف فرنك سنوياً عدا قصره في أنفيان، وهأنا ألجأ إليك يا أموري تخطب لي المدموازيل مادلين إبنة وصيك!

فهتف أموري مرتاعاً:

– ما هذا الذي تقول يا فيليب؟

– إني أقول إنني ألجأ إليك يا صديقي وأخي أموري كي تخطب لي المدموازيل..

وقال أموري:

– مادلين دافريني؟

– نعم.. تماماً.

– لم تكن انطوانيت إذن موضوع حبك.

– ما فكرت فيها قط.

– وهل تحب مادلين.؟

– أجل.. مادلين.

– ولكنك قد تأخرت مرة أخرى أيها التعس، إني أيضاً أحبها.

– أنت تحبها؟

– نعم! و..

– وماذا؟

– وقد خطبتها بالأمس وقبلت خطبتي.

– خطبت مادلين؟

– نعم.. تماماً.

– مادلين دافريني.

– تماماً.

فطوح فيليب ذراعيه في الهواء كمن أخذته الصاعقة، ثم غادر بيت صديقه متحاملاً على نفسه دون أن ينطق بحرف، هو شارد اللب زائغ البصر، يكاد يغص بريقه.

سعادة تحت الحراسة

من يوميات المسيو دافريني

١٥ مايو

«الحمد لله! سوف أبقى مع ابنتي، فقد اتفقنا على أن أذهب حيثما يذهبان، وأعيش حينما يعيشان. وقد عولا على قضاء الشتاء في إيطاليا، وسأستقيل من منصب الطبيب الخاص للملك وأصحبهما. وإني لأعلم أن كثيراً من الناس سيلومونني على التخلي عن عيادتي ومرضاي ولكن ما الذي يعنيني من هذا كله؟ إن الشخص الوحيد الجدير بكل جهدي هي إبنتي.

وسوف نستأجر قصراً في نابولي، على أنني أرمى من وراء هذه السياحة إلى غاية أخرى، فقد سألت الوزير بالأمس أن يعهد إليه بمهمة سرية على أكبر جانب من الخطورة دون أن يعلم، وأرجو أن يكون في هذا ما يحفزه إلى طلب المزيد من الرفعة والمجد. وسأضع في خدمته كل ما إكسبتني إياه الأعوام المتطاولة من خبرة ونفوذ، فأقوم عنه بالمهمة وأترك له إجتناء ثمار غرسي. إن ثروتي وحياتي وشخصي ملك لإبنتي فلن أضن عليه بها جميعاً من أجلها. وما أبغي لنفسي شيئاً سوى أن أراها تبتسم لي أحياناً وأسمع صوتها وأعرف أنها سعيدة هانئة.»

«١٦ مايو»

«إنهما سعيدان حقاً حتي لأشعر بصدى هنائهما في صدري، وأخدع نفسي بما أراه من مادلين من دلائل الحب، على علمي بأن ما تحوطني به هو فضلة حبها له، وقد كنت أوشك على ولوج غرفتها عندما أقبل اليوم بوجه يتألق بشراً. فمكثت في الردهة خشية أن أفسد عليهما سعادتهما. وبعد دقيقتين إنطلقا إلى الحديقة ووقفت ألاحظهما من وراء الستار، فرأيت الأيدي تلتقي، والنظرات تمتزج، وخيل إلى أنهما يزدهران ككل ما يحيط بهما من نور وزهر. على أني لا أستطيع أن أتخلص من القلق حين أفكر فيما ينتظر إبنتي من الإنفعالات، فإنها واهنة يسحقها السرور كما يسحق غيرها الحزن. وما أخال حبيبها يحرص عليها مثل حرصى. وقد يفضي به جموح عاطفته إلى القضاء عليها دون أن يدري، إذهبي يا إبنتي إذن إلى لقاء هذه العاصفة ما دامت هذه هي مشيئة القدر ولكن سألازمك وأسهر عليك وأقيك لفحات الحر، ولذعات البرد.»

«١٧ مايو»

«واحسرتاه! ها هي آمالي تتهدم مرة أخرى. فقد ظننت عندما استيقظت هذا الصباح إنني مقبل على يوم من أسعد أيام حياتي. فأبى الله إلا أن يكون مفعماً بأسباب الألم والعناء.

جاء أموري متهللاً مرحاً كعادته. وتركتهما مع مس براون لأقوم بواجباتي المعتادة وظللت طوال النهار مسروراً إذ كنت موشكاً على الإفضاء إلى الأمور بالخطة التي رسمتها. والمهمة التي حصلت عليها له.

فلما عدت في الساعة الخامسة ألفيته قد بكر في الانصراف كي بعجل بالعودة. كما رأيت وجه مادلين مشرقاً بنور السعادة والهناء. لله هذه الطفلة المحبوبة! إنها تقول إنها لم تشعر بمثل ما هي فيه من القوة والعافية من قبل. فهل تراني كنت مخطئاً. وأن هذا الحب الذي أشفقت على بنيتها الواهنة من وطأته سيحيل ضعفها قوة وسقمها عافية؟ وكنت أريد مفاجأة إبنتى وخطيبها بما هيأت لهما من أسباب السعادة وضروب المتاع. فغادرتها بقاعة الإستقبال وحدها حتى لا أبوح بشيء مما أسر وخرجت إلى الحديقة. فجلست مادلين البيانو. وأخذت الأنغام التي أودعتها نجواها تنفذ إلى أعماق فؤادي.

وانقطع العزف فجأة فابتسمت وأدركت أن أموري قد عاد، وعدت أدراجي نحو قاعة الاستقبال عن طريق آخر محاذ لسور الحديقة. وهنا إلتقيت بانطوانيت جالسة على أحد المقاعد وهي مستغرقة في التفكير. وقد كنت في اليومين الماضيين أريد محادثتها على إنفراد، فرأيت الفرصة سانحة لذلك، وجلست بجانبها. بيد أنه لم يكن يسعني أن أغفل شأن الفتاة وأتركها تكابد آلام الوحدة والوحشة، فإني لأحبها حقاً كما كنت أحب أمها من قبل. وهكذا عولت على خطة تكفل السعادة لنا جميعاً، ورفعت الفتاة رأسها عندما رأتني ومدت إلي يدها مبتسمة وقالت:

– والآن يا خالي العزيز.. ألم أكن على حق عندما قلت أنك ستسعد بسعادتهما؟

أجبت:

– أجل يا إبنتي، ولكن ينبغي أن نراك قريرة راضية مثلنا.

– وإنني كذلك يا خالي، وليس لي مطمع في المزيد من الهناء. إنك تحبني حب الوالد الكريم، وأموري ومادلين يحبانني كذلك حب الأخوين الشقيقين. فماذا أبغي فوق ذلك؟

– بل ينقصك يا إبني من يحبوك حب الزوج لزوجته.. وقد وجدت لك هذا الفتى المنشود.

فهتفت الفتاة لتمنعني من المشي في الكلام، ولكني قلت لها:

– إصغي إلى يا انطوانيت وسأسمع بعد ذلك جوابك. أنك تعرفين المسيو ريمون المسجل الشاب الذي يتولى أعمالي، فما رأيك فيه؟

– رأيي إنه ظريف بإعتباره مسجلاً .

– دعك من المزاح يا انطوانيت.. أتشعرين بشيء من النفور منه؟..

– ما دمت لا أحب أحداً فإن الناس جميعاً لدى سواء.

– لقد جاء بالأمس المسيو جول ريمون وإذا كنت لا تشعرين يميل إليه، فإنه يميل إليك. والمسيو جول ريمون شاب له مستقبل زاهر وهو يريد أن تشاطريه مستقبله. وأنه ليعلم أن لك بائنة مقدارها مائتا ألف فرنك..

فقاطعته انطوانيت قائلة: إنك في هذا سخيٌ شأنك في كل أمر فلا يسعني إلا شكرك والثناء عليك. وإني لأجل المسيو جول ريمون وأكبر مواهبه، ولكن ألم أقل لك أنني أريد البقاء معك؟

وعبثاً ظللت أجادلها في رأيها، فلم أجد مناصاً من النزول على إرادتها عندما رأيت أنها لن ترضى بما أردت لها إلا كارهةً راغمة فحدثتها بما إعتزمت الإفضاء به إلى ولدي بعد دقائق معدودات، وقلت لها أنها سترافقنا في رحلتنا. ولكنها أعربت عن عزمها على التخلف عنا وقالت: سأمكث هنا مع مس براون في إنتظار أوبتكم. فلم أحاول بعد ذلك إقناعها، وإن حرت في تعليل ما يحمل هذه الفتاة الناعمة الحسناء على إيثار وحشة الرهبنة والعزلة.

وقلت: كلا يا إبنتي العزيزة! لا تزعجي نفسك بالإنصراف فإني ذاهب وما أريد أكثر من أن تستطيع مادلين التعرض مثلك لنسيم المساء دون أن يؤذيها البرد.

نهضت انطوانيت قائلة:

– وإني لأقسم لك يا خالي العزيز أنني لو إستطعت لخلعت على مادلين ثواب الصحة الذي أرفل فيه لقد كان خيراً ألف مرة أن أبتلى أنا اليتيمة التاعسة بهذا الداء الذي يهددها وقد أسبغت عليها الأقدار كل ما عدا الصحة من النعم ولاسيما نعمة الحب.

قبلت الفتاة في حنان إذ كانت لهجتها لا تترك مجالاً للريب في صدقها وإخلاصها، وعادت إلى مقعدها كما سرت في طريقي إلى البيت.

وما إن اعتلت أول درجة من السلم المفضي إلى الشرفة حتى بدد صوت مادلين العذب ما علق بنفسي من الكآبة والشجن، فوقفت قليلاً لا لأصغي إلى ما تقول، بل لأستمتع بما في صوتها من رقة ورخامة. على

أن كلماتها ما لبثت أن إسترعتني فأصغيت إلى ما يقولان وقد إنعقد لساني وتولاني الجزع والوجوم، إذ كانت كل كلمة من كلماتها تمزق فؤادي كالخنجر المرهف.

كان باب الشرفة مفتوحاً وقد أسدلت عليه الستائر، وكان أموري يقول: أية سعادة سأحظى بها عندما أرى وجهك يزداد نضرة وإشراقاً تحت سماء نابولي الصافية الزرقاء.

قالت: أجل يا أموري، ولسوف أنشد مع الشاعر (ما أجمل أرضاً تزدهر بها خمائل البرتقال!) ولكن حبك سيكون أجمل ما هناك لأنه صورة السماء نفسها

فزفر أموري زفرة تشف عن الضيق والتبرم، وسألته مادلين عما به فقال:

– إنما أعجب لأننا لا نستطيع الظفر بالسعادة بريئة من الشوائب والأكدار.

– ماذا تعني؟

– أعني أن إيطاليا حقيقة بأن تكون جنة وأرفة الظلال لولا أمر واحد.

– وما هو؟

– لست أجرؤ على مكاشفتك به يا مادلين.

– بل لابد لك من ذلك.

– حسناً!.. إني أشعر أن سعادتنا لا تتم إلا إذا كنا وحدنا، فإن الحب شيء مقدس رقيق يغض منه وجود ثالث.

– أتعني بما قلت مرافقة أبي لنا؟ إننا مدينون له بكل ما نحن فيه من الهناء، ثم أنه ليس بالشخص الثالث، ولكنه جزء ثالث من شخصينا. أنه ليحبنا كلينا على السواء يا أموري، وخليق بنا أن نجزيه عن حب بحب.

أجاب أموري في شيء من الفتور:

– حسناً.. فلنكف عن الحديث في هذا الأمر مادمنا مختلفين فيه..

بادرت مادلين قائلة:

– هل آلمتك أيها الحبيب؟ ألم تدرك بعد أيها الفتى الغيور إن حب المرأة لحبيبها وحبها لأبيها يختلفان أشد الإختلاف؟

– ما غابت عني هذه الحقيقة، ولكن حب الأب يختلف عن حبنا في خلوه من لواعج الغيرة.

ولقد هممت بأن أقاطعه، ولكني جمدت في موقفي لا أملك نطقاً ولا حراكاً، وشعرك بمزيج من الإرتياح والألم لدفاع إبنتي عني. غير أنه بدا لي أنها ينبغي أن تفعل أكثر من مجرد الدفاع.. كنت أتشوق إلى سماعها تصارح حبيبها بأنها لا غنى لها عني، كما أنني لا غنى لي عنها، ولم يتخل عني الأمل في أن تجابهه بذلك.

ولكنها استطردت قائلة:

– قد تكون على حق يا أموري، ولكنك تعلم أننا لا نستطيع التخلص من مرافقته لنا دون أن نؤلمه ونجرح عاطفته جرحاً بالغاً.

– لا تخدعي نفسك يا عزيزتي. فهل تظنين أنني أستطيع القول أمامه أنني أحبك، أم أجرؤ على تطويق خصرك بيدي بين أشجار البرتقال وعلى شاطىء البحر المتألق وهو يسير من خلفنا؟ إننا لن نستروح نسيم الحرية، ولسوف نصمت ونحن نريد الكلام، ونتكلم ونحن نؤثر الصمت. لن يباح لنا ما يأخذ فيه الشباب من اللهو والعبث، والإنطلاق والمرح، والإندفاع والمغامرة.

أخذت أترقب جواب إبنتي في لهفة وقلق، وطال ترددها وصمتها ثم قالت: هب يا أموري أنني أشاطرك رأيك، فما الذي تستطيع عمله؟ ومن ذا الذي يجسر على مصارحة والدي المسكين بأنه يعترض سبيل سعادتنا؟ لئن إستطعت أنت ذلك، فما أستطيعه أنا بحال من الأحوال.

أجاب أموري:

– إني لأعرف ذلك حق المعرفة وهذا سبب يأسي وقنوطي. أن والدك ذكي، فكان جديراً به أن يتجافى عما اعتاده الشيوخ من فرض صحبتهم على الشباب، والتغاضي عن ميول أبنائهم ورغباتهم. وأن هذه السياحة التي ينبغي أن تفيض علينا السعادة والجذل سيفسرها...

وقالت مادلين وهي تخفض صوتها:

– أني أشاطرك آرائك وإن لم أجرؤ على الاعتراف بذلك من قبل حتى فيما بيني وبين نفسي ولكن يخلق بك أيها الحبيب أن تتقبل الأمر الواقع بالرضا والتسليم مثلي.

لم يعد في مقدوري الإصغاء بعد ذلك، فقد نفذت كلماتها إلى سويداء فؤادي فأدمته، وإن أوضحت لي نهج الهدى والرشاد وصعدت السلم فكفا عن الحديث عندما سمعا وقع خطاي. ثم وقفا عندما دخلت القاعة فقبلت مادلين وصافحت أموري وقلت: إني أحمل إليكما نبأ سيئاً يا ولدي لقد أبى جلالة الملك ألا أن بتشبث ببقائي، ولا مناص لكما من الرحيل بدوني.

فقالت مادلين:

– يا لسوء الحظ يا أبي..

وقال أموري وهو يحاول إخفاء إبتهاجه وتكلف الأسف:

– ستكون على كل حال ماثلاً في خواطرنا دائماً وإن غبت عن عيوننا يا أبي.

وحاولا الإسترسال في هذا الحديث ولكني حولت دفته إذ أمضنى نفاقهما البريء، وتحدثت إلى أموري في المهمة التي حصلت عليها له..فلما إنصرف صحبته مادلين إلى خارج القاعة.. وإتفق إن دنوت من الباب لآخذ كتاباً من فوق إحدى المناضد، فسمعتها تقول له:

– ألا يبدو لك أن الظروف قد ألمت بأمانينا وعملت على

تحقيقها؟

قال: بل أرى أننا أسقطنا الطمع المركب في الطبائع الإنسانية من حسابنا.

وهكذا ستعتقد إبنتي أنني لم أتخلف عن الرحيل معها إلا بدافع الطمع والحرص ومن الخير أن تسترسل في هذا الاعتقاد.

حفلة الخطوبة

كان العاشقان سعيدين راضين، وبدا في وجوه كل من حولهم هذا الحديث الجذل والابتسام خلال الأيام القليلة التالية، غير أن اثنين منهما كانت تساورهما الهموم والمخاوف. فالمسيو دافريني برغم مظاهر سروره وابتهاجه قلق من حالة مادلين الصحية، وهو ينفق اللحظات التي يجتمع بها خلالها كلما أمكنته الفرصة في تفحصها والتدقيق في ملاحظتها.وما كان ما يلوح عليها من إمارات القوة والعافية منذ تحدد تاريخ زفافها على أموري، ليخدعه من أعراض ضعفها وهو الطبيب الحاذق الخبير. كان الدم قد سرى حقاً في وجنتها المصفرتين ولكنها حمرة مسرفة تترك بقية وجهها فاقع الاصفرار، فتبدو من تحت بشرتها الشفافة شرايينها الزرقاء.. وقد يلوح للناظرين أن تألق عينيها من مظاهر الحب والشباب. ولكن عيني المسيو دافريني النفاذتين تتبينان في هذا التألق أعراض حمى دفينة كامنة. وهي تسلخ بياض نهارها قوية تنطلق في جنبات المنزل في مرح ونشاط ولكن أموري لا يكاد يفارقها حتى ينتابها الضعف والتهافت،. وقد غدت فوق ذلك ضيقة الصدر، تثور لأتفه الأسباب أو لغير سبب على الإطلاق. بعدما كانت دمثة الطباع. على أن هذا التبدل لم يكن ينصب إلا على شخص واحد هو انطوانيت المسكينة، فلا تكاد هذه الفتاة تلج الغرفة بادية القوة موفورة النشاط، حتى يسرى فى نفس مادلين ألم لولا نبل صفاتها لحملناه على محمل الحسد والغيظ وهذا الألم يحز في

نفس مادلين. ويشوه في نظرها كل ما تفعل انطوانيت. ويفرغ على تصرفاتها من المقاصد والمعاني ما لا يخطر ببال الفتاة المسكينة.

فإذا لزمت انطوانيت مخدعها وسأل عنها أموري كان نصيبه كلمات لاذعة أليمة جراء سؤاله البريء. وإذا كانت انطوانيت حاضرة واستقرت عليها عيناه من غير قصد أخذ الغيظ من نفس مادلين كل مأخذ وأسرعت بإبعاده إلى الحديقة. وإذا كانت الفتاة بالحديقة واقترح أموري الخروج إليها تمحلت مختلف الحجج والمعاذير للبقاء بالغرفة. ولكن انطوانيت تتجاهل إساءات إبنة خالها وتغضي عنها، ولا تنفك من الاعتذار إليها من هفوات لم تقترفها، فإنها لتعلم نبل مادلين وكرم طباعها وأنها لتعلم أن قسوتها وخشونتها أعراض داء وبيء خفي.

ودنا يوم الاحتفال بإعلان الخطبة، وأخدت الفتاتان تتشاوران فيما ترتديان للحفلة الراقصة من الثياب، فدهش أموري إذ رأى حبيبته أوفر اهتماماً بثياب إبنة عمتها منها بثيابها.

واقترحت انطوانيت أن ترتديا كلاهما ثياباً بيضاء متماثلة كما كانتا تفعلان دائماً، ولكن مادلين قالت أن اللون الوردي أكثر ملاءمة لابنة عمتها وبادرت الفتاة إلى الموافقة والتحبيذ.

وجاء اليوم الموعود، فإذا بمادلين لا تستقر على حال من القلق والانزعاج ولا تكف من إظهار الضيق والتبرم بكل ما تقع عليه عينها، وأموري يتعجب أشد العجب لما تبدي من اهتمام مألوف بالزينة والثياب، كأنها لا تعلم أنها غنية بجمالها عن التجمل والتأنق.

قال أموري: إن شعرك وثوبك لا عيب فيهما على الإطلاق.

أجابت في ثورة وإنفعال: لا ريب إذن أن العيب في شخصي.

فاقترب منها أموري محاولاً لثم يدها، ولكنها تظاهرت بعدم رؤيته وانثنت إلى صانعة الثياب مشيرة إلى ثنية رقيقة في حزامها لا تكاد تستبينها العين، وطلبت إليها في حدة أن تصلحها أو تلقي بالثوب جانباً وترتدي أول ثوب تقع عليه يدها.

وخرج أموري إلى غرفة ملاصقة ريثما تفرغ من إصلاح الثوب، وراح يتلهى بالنظر في إحدى المجلات دون أن تفوته كلمة مما يقال في الغرفة الأخرى التي لا يفصلها عنه غير باب. وهنا أقبلت انطوانيت مرتدية ثوباً بسيطاً وردي اللون، خالياً من كل زينة ووشي وليس عليها شيء من الحلي على الاطلاق.وما إن رأت أموري حتى إنثنت وهي تقول:

– أأنت هنا؟ لم أكن أعرف ذلك.

أجاب أموري:

– ولماذا تعودين؟ إسمحي لي على الأقل بتهنئتك، فإنك لتبدين في أوجِ بهائك وسنائك.

قالت:

– لا تتحدث عن هذا.

– من هذه التي معك يا أموري؟

قالت مادلين ذلك وهي تفتح الباب ملتفة في وشاحٍ كبير، وراحت ترمق إبنة عمتها.

وقال أموري:

– إنني مع انطوانيت كما ترين، وقد كنت أهنئها على حسن منظرها.

– لعلك كنت صادقاً فيما قلت لها كان خيراً يا انطوانيت لو جئت لمساعدتي بدلاً من الإصغاء إلى هذا التملق الخامل.

أجابت انطوانيت:

– لقد دخلت الغرفة الآن يا مادلين. ولو علمت أنك في حاجة إلي لأسرعت بالحضور.

– ومن التي صنعت لك هذا الثوب؟

– إنك لعلى حق.. فما تستطيع أية صانعة ثياب أن تخرج لك ثوباً مثله.

– لقد عرضت عليك أن أصنع ثوبك أيضاً ولكنك أبيت.

– ومن صفف شعرك ؟

– أنا طبعاً. وهو مصفف على طريقتي العادية.

فقالت مادلين وهي تبتسم في غيرة:

– صدقت.. لست في حاجة إلى ما يزيد من جمالك.

وسارت انطوانيت إلى ابنة خالها وهمست بصوت لم يسمعه أموري:

– إذا لم تكن لديك الرغبة في عدم حضوري الحفلة فحسبك أن تأمري فألزم مخدعي.

وأجابت مادلين بصوت مرتفع:

– ولماذا أحرمك هذا السرور؟

– أؤكد لك يا ابنة خال العزيزة أنني لا أجد فيها شيئاً من السرور.

قالت مادلين غاضبة:

– كنت أحسبك تسرين بما يسرني.

– وهل بي من حاجة إلى الأضواء الساطعة والموسيقى الصادحة كي أحسن بما يخامر فؤادك من البهجة والسرور؟ إنني أتمنى لك أطيب التمنيات وإني الليلة لمتعبة مريضة حقاً.

فهتفت مادلين:

– أنتِ مريضة؟

وهنا قالت الصانعة من الغرفة الأخرى:

– تفضلي يا آنسة فقد هيئ الثوب.

وقالت انطوانيت في تهيب واستخذاء:

– قلت أنني أستطيع مساعدتك، فماذا ينبغي أن أفعل؟

أجابت مادلين:

– إفعلي ما يروق لك. فتعال معي أو إبقي مع أموري إذا كنت تؤثرين ذلك.

وسارت إلى الغرفة الأخرى في سخط لم يغب حتى عن أموري..

فقالت انطوانيت وهي تسير في أثرها وتغلق الباب خلفها:

– هأنا.

وغمغم أموري وهو ينظر إلى الباب المغلق:

– ما الذي يؤلمها اليوم؟

فأجابه المسيو دافريني من خلفه وقد شهد ما حدث من وراء الباب دون أن يشعر به أحد:

– إنها مريضة، وهذه الانفعالات المختلفة تسوقها إلى حمى تقتلها.

وهتف أموري:

– آه.! أهذا أنت يا أبي.؟ ثق أنني لم أرد بما قلت توجيه شيء من اللوم إلى مادلين، ولكني خشيت أن أكون أغضبتها بوجه من الوجوه.

– طب نفساً يا أموري، فإنك لم تخطيء ولم تخطيء انطوانيت كذلك.. واللوم كله على شدة حبها لك.. والآن ينبغي أن تعدني ألا

تغريها بالرقص وخاصة رقصات الفالس العنيفة.

أجاب:

– كن مطمئناً يا أبي.

وهتفت مادلين من الداخل بصانعة الثياب:

– دعي انطوانيت تحل محلك يا مدام ليرو.

صاحت انطوانيت :

– ستكونين كوكب الحفلة بلا مراء.

– كوكب الحفلة! ما أكرمك يا انطوانيت إذ تجعلين مني موضوعاً لسخريتك. إنما يكون هذا الشرف من نصيبك أنت بثيابك الأنيقة.

قالت انطوانيت عاتبة:

– ما هذا الذي تقولين يا عزيزتي مادلين؟

أجابت: – أقول أنك ستجدين في الحفلة متسعاً للظهور على بما تحسنين من أساليب الفتنة والدلال. ولكنه ليس بالحميد أن تتبعيني إلى غرفتي مزهوة بانتصارك المقبل وفوزك المنتظر.

وقالت انطوانيت في صوت يخنقه البكاء:

– أتريدين مني الإنصراف؟

لم تجب مادلين.. وغادرت انطوانيت الغرفة وهي تنتحب وظل

أموري في مقعده وإستوقف المسيو دافريني الفتاة قائلاً:

– تعالي.. تعالي يا إبنتي العزيزة المسكينة.

فغمغمت الفتاة التاعسة:

– أواه يا أبت العزيز.. إنني شقية بائسة.

أجاب:

– ليس هذا ما أردت أن تقولي وما ينبغي أن تقولي. خليق بك ان تقولي أن مادلين جائرة متعسفة. ولكنها لا تؤاخذ على شيء مما تقول إذ أن المسكينة تكابد حمى متوهجة. وخليق بك أن ترثي لها. وستأسف على غضبها وتسألك الصفح والمغفرة إذا ما عاودتها الصحة.

وترامى إلى سمع مادلين صوتان يتهامسان فدفعت الباب بشدة وهي تخرج إلى الغرفة، ولعلها ظنت أن أموري وانطوانيت يتحدثان عنها، فنادت في ضجر وإستياء:

– أموري!

فلما نهض أموري تلبية لندائها ورأته منفرداً كما رأت أباها وانطوانيت في الجانب الآخر من الغرفة، أدركت خطأها وصبغت محياها حمرة الخجل. أما أموري فقد أخذ يدها وعاد بها إلى مخدعها ثم قال:

– بربك أيتها الحبيبة خبريني ماذا أصابك؟

وتبدد غضب الفتاة عند سماع هذه الكلمات، فألقت بنفسها على

أحد المقاعد وإنفجرت باكية وهي تقول:

– أجل إني الشريرة آثمة وإني لأعرف أن هذا رأيك وإن لم تصرح به. أجل! لقد سددت أقسى الطعنات إلى فؤاد انطوانيت العزيزة، وسببت لك ولأحب الناس إليّ الهم والنكد. فلماذا لا يحسن في عيني شيء حتى من الأشياء الجامدة؟ إن كل شيء يؤذيني ويؤلمني، سواء في ذلك ما يعنيني أمره وما لا يعنيني، ما سر هذا الشقاء والضيق الذي يطبق على من كل جانب.. ما سره وقد أصبحت السعادة في متناول يدي؟ إني لأجد في بعض الأحيان ضيقاً شديداً وإنقباضاً قائلاً، وإندفع أحياناً في نزوات من الغضب العنيف الذي لا مبرر له. لو كنت مريضة أو شقية لسهل علي تعليل هذا، ولكننا سعيدان يا أموري.. ألسنا في الحق كذلك؟

قال: – أجل أيتها الحبيبة.. وما الذي يحول بيننا وبين السعادة؟

– أعرف أن حبك لي يحملك عن الإغضاء عن كل ما آتي من الذنوب، ولكن كيف يكون شأن صديقتي العزيزة أنطوانيت التي قسوت عليها أشد القسوة؟

– أنا الكفيل يا انطوانيت، وستسرع إلى الصفح عنك مثلي.

ثم نادى المسيو دافريني قائلاً:

– تعال يا وصيي العزيز وساعدني على إقناع هذه الطفلة الحمقاء لأننا أعلم الناس بكرم نفسها ونبل طباعها من أن تؤلمنا منها نزوة عابرة

أو غضبة زائلة.

غير أن المسيو دافريني لم يجب، بل دنا من إبنته في إشفاق وقلق، وراح يتأملها متفحصاً ثم جس نبضها وهو مستغرق في التفكير. وقال بعد هنيهة:

– أوشك يا إبنتي العزيزة أن أطلب إليك شيئاً من التضحية، ويجب أن تعدي يا مادلين بإجابة طلب والدك الشيخ.

وشحب وجه أموري إذ تبين في صوت المسيو دافريني أشد الجزع والقلق، وهتفت مادلين:

– إنك لتزعجني يا أبتِ!

وتلا ذلك صمت جاهد الشيخ خلاله ما يعتمل في نفسه من القلق، ولكن جبينه إزداد برغم ذلك تقطباً. وإستطردت مادلين في صوت مرتجف:

– قل لي يا أبت ماذا تريد أن أفعل؟ أتراني أسوأ حالاً مما بدا لي؟

ولكن المسيو دافريني استطرد متجاهلاً سؤالها: لست أبغي أن أطلب إليك يا إبنتي المحبوبة عدم الظهور في الحفلة التي ستقام هذا المساء، ولو أن هذا أدنى إلى الحكمة والصواب. ولكني أكتفي بأن أرجو منك الإمتناع عن الرقص وخاصة الرقصات المشقة. إنك لست بالمريضة فعلاً، ولكن إهتياج أعصابك يحملني على الإبتعاد بك عن كل ما يزيد اهتياجك وانفعالك.

فصاحت مادلين غاضبة: ولكنك يا أبتِ تطلب مني أمراً عسيراً!

وهمس أموري قائلاً: لن أرقص قط.

وكانت مادلين كريمة القلب حقاً، فتأثرت بما يبديه كل من يحيطون بها من التضحية والإيثار وأجابت ودموع الأسف تتبادر من مآقيها:

– سأنزل على رغبتك كي أكفر عن سالف قسوتي وأثبت لكم أنني لست دائما بالأنانية. أعدك ألا أرقص هذا المساء يا والدي العزيز.

وهنا جاء أحد الخدم معلناً قدوم بعض المدعوين، وحان الذهاب إلى قاعة الإستقبال، ولكن مادلين طلبت رؤية انطوانيت قبل ذلك.

وما كادت تفوه بذلك حتى انفرج الستر وبرزت انطوانيت يضيء وجهها الإبتسام. وإن كانت أجفانها لاتزال محمرة من كثرة ما ذرفت من الدموع.

وقالت مادلين وهي تتقدم نحوها:

– آه إبنة عمتي الصبورة الكريمة و...

ولكن انطوانيت حالت بينها وبين المضي في الإعتذار، فطوقت عنقها وراحت تقبلها.

وهكذا ظهرت الفتاتان في قاعة الحفلة جنباً إلى جنب، ومادلين لاتزال شاحبة بادية الضعف والتهافت، وانطوانيت موفورة القوة والنشاط.

حدث في الحفلة

رغم ما ساور مادلين من المخاوف والهواجس.. فقد كانت نجمة الحفلة لا تدانيها في ذلك غير انطوانيت بما يطفح به وجهها من إمارات الإشراق والنشاط. وما كادت الموسيقى تصدح بأنغامها حتى سرت في بدن مادلين العافية. وإنمحت من وجهها علامات الضعف. وزاد من ابتهاجها أن المسيو دافريني كان يقدم أموري إلى المدعوين باعتباره خطيب إبنته. وقد بر أموري بوعده، فلم يرقص غير رقصات قلائل عادية في فترات متباعدة. وأنفق بقية وقته إلى جانبها.. فراحت تضغط على يده في رفق شاكرة ممتنة. وكانت انطوانيت تقصد إليها بين الفينة مستعلمة عن حالها.. وهي أدنى إلى التابعة التي تقوم بشعائر الولاء والخضوع إلى ملكيتها. وقال أموري:

– إني أعلم رغبتك في التكفير عن سالف إساءتك إلى انطوانيت، فهلا يحسن بي أن أدعوها إلى الإشتراك معي في إحدى الرقصات؟

أجابت مادلين:

– انطوانيت؟ طبعاً..

وتولى مادلين الإنقباض والاستغراق، فكانت لا تجيب عن أسئلته، ولا تحول بصرها عن انطوانيت في غدوها ورواحها. أما انطوانيت فقد نفثت فيها الموسيقى الروح المرح والنشاط، وأفاضت على كل ما حولها

أضواء البهجة والإشراق. وكان فيليب يتجنب أموري ويعامله في فتور وجفاء، ولولا حرصه على شرف الوجود بين مدعوي المسيو دافريني لما لبى الدعوة.. وبدا له أن يظهر الود لانطوانيت، والجفاء لمادلين، ولكن الفتاتين لسوء حظه لم تكونا على علم بشيء من أمره إذ حرص أموري على كتمان سره، فلم تشعرا بشيء من تردده وجفائه..

أما المسيو دافريني فقد أخذ يلاحظ ابنته عن بعد، وجاء إليها في بعض الفترات قائلاً:

– من الخير أن تأوي إلى غرفتك يا عزيزتي.. فإن حالتك ليست بالحسنة.

أجابت مادلين في صوت أجش وهي تبتسم مستغرقة:

– بل إني في أحسن حالٍ يا والدي العزيز، وتروقني مشاهدة الراقصين.

– مادلين!

– بربك لا ترغمني على الإنصراف.. فما كنت قط أحسن حالاً مني الآن.

كانت انطوانيت لا تكف عن النظر إلى إبنة خالها كلما اقترب موعد الرقصة التي وعدت بها أموري، فإذا تلاقت أنظار الفتاتين غضت انطوانيت من بصرها، وظل في عيني مادلين بريق شديد. ولم يغب من المسيو دافريني ما في عيني إبنته من بريق مشتعل تجففة دموعها، وما

يضطرم بين جنبيها من النار اللافحة، فلم يقو على تملك نفسه، وأقبل عليها وقال وهو يأخذ يدها في صوت يفيض بالألم والعذاب:

– ماذا بك يا مادلين؟. إفعلي كل ما يروقك يا إبنتي. فإن كل شيء يهون أذاه بجانب هذا الجهد النفساني.

فهتفت مادلين:

– أتأذن لي حقاً في عمل ما يروقني؟

– لا أجد من ذلك مفراً .

– هل أستطيع أن أرقص الفالس مرة واحدة.. مرة واحدة فقط مع أموري؟

– إذا أردت.. فنعم!

فصاحت مادلين:

– سنرقص معاً الرقصة التالية يا أموري.. فأجاب أموري:

– ولكنها الرقصة التي وعدتني بها انطوانيت.

فإستدارت مادلين إلى إبنة عمتها دون أن تجيب.. ونظرت إليها متسائلة وابتدرتها انطوانيت قائلة:

– إني لفي أشد التعب، وسيكون سروري عظيماً بإغتنام بعض الراحة إذا قبل أموري أن تتفضل مادلين بمراقصته بدلاً مني.

ولاحت بارقة من الابتهاج بعيني مادلين الملتهبتين.. وهنا صدحت

الموسيقى، فنهضت كالمحمومة، وجذبت أموري إلى حلقة الرقص.. وهمس المسيو دافريني عندما مرا به

– كن محاذراً عليها.

بيد أن نشوة من الطرب والابتهاج غمرت فؤاد مادلين وآنستها ضعفها، ومازالت تجد في الرقص وتشتد وأموري يحاول عبثاً كبح جماحها، حتى شعر بها تميل فجأة على صدره مغمي عليها، وقد كسا وجهها الشحوب والإمتقاع، وأطبقت عينيها وصارت أدنى إلى العود اليابس المهشم.

جمد أموري في مكانه أول الأمر مرتاعاً ذاهلاً، ولكنه لم يلبث أن تمالك نفسه وحملها بين ذراعيه وأسرع بها إلى مخدعها والمسيو دافريني يعدو في أثره. وما أضجعها على فراشها حتى أكب عليها والدها وراح يجس نبضها بإحدى يديه، ويعطيها بالأخرى العقاقير المنبهة. وبعد برهة تنبهت مادلين من إغمائها وفتحت عينيها، وكان أموري هو الذي وقع عليه بصرها برغم بعده من فراشها فإنشق صدر أموري عن نحيب مرتفع، ونظرت إليه مادلين مبهوتة..

وقال له المسيو دافريني:

– إذهب يا ولدي وأصرف ضيوفنا.. يجب أن تكون قريباً إذا سألت عنك مادلين.

قبل أموري يد مادلين، وشيعته الفتاة المسكينة بأنظارها مبتسمة.

وكان المدعوون قد انصرفوا من تلقاء أنفسهم، فطفق أموري يدور في الردهات والمماشي مهموماً قلقاً، ثم وقف بباب المخدع مبتسماً، وبعد نصف ساعة خروج المسيو دافريني ومد إليه يده قائلاً:

– إنها في تحسن، ولكني سأقضي الليل بجانبها.. أما أنت يا ولدي فمن الخير أن تأوي الآن إلى فراشك.

وذهب أموري إلى غرفته القديمة حيث استلقى على مقعد بجانب المدفأة. أما المسيو دافريني فقد قصد إلى مكتبته وأخذ كتاباً صغيراً أنيق التجليد على غلافه صليب فضي، وعاد به إلى غرفة إبنته النائمة حيث جلس بجانب فراشها، وكان ذلك الكتاب «الاقتداء بالمسيح».. كان المسيو دافريني يحس أن كل ما في مقدور الإنسان من براعة وحذق لا يغني عن إبنته شيئاً، وأن الله وحده هو القادر على مساعدته.

نوم هادىء

من يوميات المسيو دافريني

٢٢ مايو بعد منتصف الليل.

بدأ النضال مرة أخرى بيني وبين شبح الموت الرهيب، وبات على أن أنتزع إبنتي من مخالبه القاسية.. وقد أنجح إذا كان الله في جانبى، أما إذا تخلى عني فلا عاصم لها من الموت.

إن إغفائها متقطع تعلقه الحمى، ولكنها تنام على كل حال ولله الحمد.. وإنها لتهتف باسم أموري في أحلامها.. أموري.. وأموري دائماً. لماذا سمحت لهما بالرقص معاً تلك الرقصة العنيفة ؟. ولكن ما أتردد في السماح لها بذلك لو عادت تلك الظروف.. وكانت الغيرة كفيلة أن تبرح بها قبل الإعياء. الغيرة؟. لقد صحت شبهاتي إذن.. وهي تغار من ابنة عمتها.. وما غابت هذه الحقيقة عن انطوانيت المسكينة فسلكت طوال الحفلة مسلكاً لا غبار عليه، ولكن أموري وحده هو الذي يجهل هذه الحقيقة.. ألا شد ما أخشى أن ينتهي بها هذا الرجل إلى الموت.. فها هو المرض قد أنشب فيها مخالبه للمرة الثانية لأنه ضمها بين ذراعيه. لكن لو لم تلق أموري لشغفت بسواه..كلا.. ما ينبغي لها أن تتزوج.. فإن السعادة تقتلها.»

«٣٠ مايو»

لم أجرؤ أن أخط حرفاً بهذه اليوميات ليلة الأسبوع المنصرم.. فقد كانت حياتي معلقة بكل نفسٍ من أنفاسها ونبضة من نبضاتها. لم أبرح مخدعها قط.. ولم أكترث بعيادتي ومستشفياتي ومرضاي.. ولقد استدعاني الملك مرتين لأن بصحته إنحرافاً.. ولكني قلت للرسول:

– أخبر الملك أن إبنتي تحتضر.

ولكنها الآن أحسن حالاً.. وقد آن لملك الموت أن يخفف عنها قبضته، إن يعقوب كافح ليلة واحدة.. أما أنا فكافحت سبعة أيام وسبع ليالي سوياً، كان اليأس يعاودني إذ أرى العدو الذي صددته لحظة يعيد كرته.. والباشق القاسي الذي يمزق رئتي إبنتي يجثم على فريسته.. فلا أملك سوى أن أجثو على ركبتي هاتفاً في ضراعة وخشوع.. يا إلهي.. أدركني بقدرتك الشاملة، فحيلتي محدودة .. إنني طبيب مشهور بالنبوغ. وفي باريس وحدها مئات من الناس مدينون لي بالحياة.. وطالما رددت الزوجات إلى أزواجهن. والأمهات إلى بناتهن والبنات إلى آبائهن. وها هي إبنتي تحتضر دون أن أستطيع أن أقول: سوف أنقذها! كيف قهرت الموت حين دافعته عن أناس لا تربطني بهم رابطة.. ثم أعجز دونه حين يهدد حياة إبنتي.. بل حياتى؟ واأسفاه!. ما أشد ما تسخر الأقدار مني، وما أقسى هذه الضربة على إعتزازي بعلمي ومقدرتي!.

ولكن أولئك الناس كانت أمراضهم خطيرةً حقاً.. غير أنها ميسورة الشفاء.. أما السل فلا دواء له ولا برء منه! إنه المرض الوحيد الذي لا يشفى إلا بمعجزة إلهية. وقد شاء الله أن تبتلى إبنتي بهذا المرض. إن

ثمة حالات قلائل شفي فيها هذا المرض.. ولكنه كان في أول أدواره، وكثيراً ما أحمد الله إذ أرادت الأقدار أن أكون طبيباً.. كأنما سبق في علم الله أن أتوفر على علاج إبنتي وأتولى السهر على حياتها.. ومن غيري يلازم فراشها آناء الليل وأطراف النهار.. ويقف عليها كل ما أوتي من حذق وعلم وذكاء.. مهما بذل له من الأجر؟»

«٥ يونيو»

«ثمة تحسن في حالتها.. والفضل فيه لانطوانيت العزيزة. وإذا كان لأموري من يد فيما حل بها.. فقد كفر عن خطئه أشد التكفير، وسلك مسلكاً حرياً بالإعجاب.. فلم يبرح غرفتها لحظة واحدة إلا مضطراً.. وما أشك أنه لا يفكر قط إلا فيها.. ولا يشغله في هذا العالم كله سواها. وقد لاحظت أنها لا تفتأ تقلب بصرها بين أموري وانطوانيت إذا جمعت بينهما غرفتها.. كأنما تريد المسكينة أن تفاجئهما وهما يتسارقان النظر.. وما تدري أن نبضها يكشف لي عما يعتمل في نفسها من الغيرة، فإنه ليسرع ويضطرب إذا اجتمعا.. ويهدأ وينتظم إذا كان أحدهما بغرفتها دون الآخر، ويضطرب كذلك إذا إتفق إن غابا عنها معاً، وما أشد ما تضطرم الحمى في عروقها حتى يعود أحدهما.. ولا غنى الآن عن وجود أموري معها دائماً، ولعل هذه الحال تتبدل فيما بعد.. ولم يكن في وسعي أن أصارح انطوانيت المسكينة بجلية الأمر وأطلب إليها عدم المجيء إلى الغرفة.. ولكنها فطنت إلى كل شيء من تلقاء نفسها.. وجاءتني منذ يومين قائلة:

– كنت تقول يا خالي العزيز أنك تريد إرسال مادلين إلى قصرك في قرية دافراي متى صحا الجو واشتدت مادلين.. وها هي مادلين قد أبلت من مرضها، والجو قد صار صحواً دافئاً، فأحب أن أسبقكم إلى القرية لأشرف على إعداد غرفتها وتعهد زهورها تمهيداً لقدومها.

وكنت أثناء ذلك أحدق فيها فأطرقت برأسها.. ولما رفعت عينيها رأت ذراعي المفتوحتين فألقت بنفسها بينهما وإنفجرت باكية وهي تقول:

– إنني لم أقترف ذنباً يا خالي العزيز.. وما يعيرني أموري إلتفاتاً وما أخطر له ببال.. ولكنها برغم ذلك تغار عليه مني، وهذه الغيرة تؤذيها وتزيد من سقمها وإعتلالها.. وإنك لتعرف هذا كما أعرفه، ولولا طيبة قلبك لطلبت إلى الرحيل، فأرجو أن تأذن لي في الذهاب.

ضممت الفتاة النبيلة إلى صدري دون أن أعطيها جواباً، وذهبنا إلى غرفة مادلين فألفيناها تتقلى على جمر القلق والاضطراب إذ غاب عنها أموري منذ نصف ساعة، وحسبته مع انطوانيت بلا ريب..

وقلت: إنك الآن يا ابنتي أحسن حالاً، وأرجو أن تتمكن من الذهاب إلى الريف معاً بعد أسبوعين.. وقد تطوعت انطوانيت العزيزة بأن تسبقنا إلى هناك لإعداد القصر لنزولنا.

فهتفت مادلين:

– أراحلة انطوانيت إلى قرية دافراي؟

فأجابت انطوانيت:

– أجل يا عزيزتي..

فقالت مادلين دون أن تملك إخفاء إبتهاجها:

– ومتى ترحلين؟

– في الحال.. وستأتي المركبة الآن.

ولعل مادلين شعرت بالندم أو بالشكر والتقدير أو بالأمرين معاً فطوقت عنق إبنة عمتها وقبلتها.. بل لقد خيل إلى أنها تهمس في أذن انطوانيت:

– إصفحي عني!

ثم جاهدت نفسها وسألتها:

– ألا تنتظرين حتى تودعي أموري؟.

فأجابت الفتاة:

– وما الحاجة إلى ذلك، فقط أبلغيه تحياتي.

ومن العجيب أن نبضها انتظم عقب رحيل انطوانيت واستغرقت في نوم هاديء مطمئن لم تنعم بمثله منذ حملناها إلى فراشها في تلك الليلة المشئومة. وكنت أتوقع مجيء أموري في أية لحظة، ففتحت بابها على مصراعيه حتى لا يوقظها عند دخوله.. وما كدت أفعل ذلك حتى أقبل، فأشرت إليه بالجلوس عند رأسها حتى يكون أول من يقع عليه بصرها حين تستيقظ.»

«٩ يونيو»

الحمد لله.. حالتها في تحسن مستمر.

«١٠ يونيو»

حياتها الآن في يد أموري، فإذا قبل ما اقترحته عليه نجت.

الأمل بعد الرجاء

تحسنت صحة مادلين تدريجيا، ولكن المسيو دافريني كان يعلم أن ثمة عاملاً ثالثاً في حالتها غير المرض، هو أموري. وغادر الطبيب غرفة إبنته بعد أن استغرقت في النوم، فقصد الى مكتبته بعد أن بعث إلى أمورى بموافاته إليها. وألفاه أموري غارقا في التفكير فلم يشعر بدخوله، وبعد أن وقف أمامه هنيهة يتأمل ما يبدو عليه من سمات الهم والقلق قال في صوت المشفق الواجف:

– لقد دعوتني يا أبي ..هل ساءت حالة مادلين؟

أجاب المسيو دافريني:

– بل بعكس ذلك يا ولدي.. إجلس لنتحدث قليلاً:

فجلس أموري وهو يشفق أشد الإشفاق مما يتجلى في صوت الشيخ من الجد والثبات وأخذ الطبيب يده وظل يحدجه بنظرة يمتزج فيها الحنان بالجد.. ثم قال:

– لنا يا عزيزى أموري أن نشبه نفسنا بجنديتين إلتقيا في ساحة الوغي فخبرا قوتهما وجلدهما، وينبغي أن نتوخى في حديثنا الصراحة والصدق.

– ما أستطيع أن أزعم لنفسي شيئاً من الجهود فيما أحرزت إلا إذا كان لصدق العاطفة وحرارة الدعاء أثرٌ يذكر بجانب معجزات العلم.

– أجل يا أموري.. وإن علمي بما تكنه لها من عظيم الحب والوفاء ليحدو بي إلى مطالبتك بتضحية طفيفة في سبيلها.

– ما أحجم عن شيء يا أبي سوى التخلي عنها.

– إطمئن من هذه الناحية يا ولدي.. فمادلين لك.. أو أنها لن تكون لغيرك على الأقل.

– ماذا تعني إذن بحق السماء؟

– إصغ إليّ يا ولدي،لقد عكفت على العناية بمادلين منذ ولادتها،وتوفرت على ملاحظتها ومراقبة ما يعرض لها من حالات القوة والضعف لم أرها تصاب بمثل هذا الإغماء غير مرتين: الأولى يوم كاشفتها بحبك في قاعة الإستقبال.. والثانية...

– لا تذكرني بربك يا أبتاه، فكم ذرفت الدموع ندماً وأسفاً في غرفتي وأنت ساهر بجانبها. ولكن ما الذي أستطيع عمله؟

– هذا هو الفرق بين حبي وحبك، فحبي يستشف ما يكنه المستقبل من الأحداث، أما حبك فسريع إلى نسيان ما في الماضي من أحزان وآلام، ولهذا يجب أن تتخلص مادلين إلى حين من حبك الأناني الأعمى، ولا يبقى من حولها غير رعايتي البصيرة لها .

– يا إلهي!. ماذا تقول؟ أحتم على فراق مادلين؟

– لأشهر معدودات فقط.

– لكن مادلين تحبني كما أحبها، فهلا تخشى أن يكون بعادي أضر

بها من حضوري؟

– كلا يا أموري، فستحيا على الأمل في لقائك، والأمل خير طبيب.

– وإلى أين أذهب.. وكيف أعتذر إليها؟.

– إن العذر مهيأ حاضر... فقد حصلت لك على مهمة ببلاط نابولي، وسأنبيء مادلين بأن مستقبلك رهين بحسن آداء هذه المهمة، وسأنبئها كذلك أننا ذاهبان للقائك. وهكذا لا يطول فراقكما أكثر من ستة أسابيع.

– أتأتيان للقائي في عودتي إلى الوطن يا أبي؟

– أجل.. سوف نذهب إلى نيس، لأن مادلين في أشد الحاجة إلى الحرارة والدفء حيث توافينا بعد الفراغ من مهمتك بقليل أو كثير حسبما تتطلب حالة إبنتي.. لقد أنقذت حياتها مرتين يا أموري، ولكن الصدمة الثالثة كفيلة بالقضاء عليها،

– سأفعل ما تطلبه مني.

وإنفرجت شفتا الطبيب عن إبتسامة لم يعرفها من إعتلت إبنته وقال:

– شكراً لك يا ولدي.. إنني أستطيع الآن أن أبعث في نفسك بالأمل والرجاء.

الطيش رزانة، والنزق حكمةً

لم يغادر المسيو دافريني بيته إلا بعدما تأكد من تحسن صحة مادلين، وعاد بعد ساعة فإلتقى عند الباب بفيليب الذي كان دائم التردد للسؤال عن صحة مادلين.. وكانت انطوانيت تستقبله، فلما رحلت إلى قرية دافراي أخذ يسأل جوزيف الخادم عن انطوانيت ومادلين. وكان فيليب يرى من مقتضيات الكرامة أن يتجاهل أموري، ولكن أموري كان من الهم في غمرة آنسته وجود صديقه القديم. وشكر المسيو دافريني فيليب ثم سار إلى غرفة مادلين. وكان قد أذن يفتح نافذتها لأول مرة منذ مرضها، فألفاها جالسة في فراشها تستنشق الهواء الطلق، وتجيل بصرها فيما تناثر حولها من الأزهار الناضرة الشذبة التي جاء بها أموري. وإستقبلت أباها هاتفة:

– ما أجد سبيلاً إلى شكرك يا أبتاه على إذنك لأموري بفتح نافذتي والمجيء إلي بالزهور، فإني لأستروح من هواء المصيف الدافيء وشذا الزهور الذكي روائح القوة والعافية.

– أجل يا إبنتي، وسنأخذك إلى بلد لا تموت فيه الورود.

– أتعني نابولي يا أبي؟

– كلا يا إبنتي، إن نابولي بعيدة لا تتحملين السفر إليها سوف نقيم في نيس، أما أموري فسيذهب إلى نابولي وحده.

وكان أموري مطرقاً الى الأرض، فراح المسيو دافريني يشرح خطته لإبنته، وهي تصغي إليه مطرقة برأسها إنها لا يشغلها غير خاطر واحد، وسألته:

– وهل تصحبنا انطوانيت؟

– يعز على أن أفرق بينك وبين صديقتك بل أختك، ولكن لا آمن سواها على العناية بشئوننا هنا وفي الريف أثناء غيابنا، ولا مناص من بقائها.

أبرقت ومضة من الابتهاج في عينيّ مادلين، وعزاها عن فراق أموري علمها بأن انطوانيت لا تصحبهم في رحلتهم، وسألت في لهفة بادية:

– ومتى يكون الرحيل؟

وبدت علائم الدهشة على أموري إذ لم تكن بصيرته تنفذ إلى الأعمال التي يصل إليها حب الأب ونستشف ما فيها من الأسرار وأجاب المسيو دافريني:

– إن الرحيل يتوقف عليك يا عزيزتي. فإحرصي على صحتك.. وسنرحل حالما تحتملين الخروج في المركبة.

– إطمئن بالاً يا أبتاه، فإفعل كل ما تطلبه مني وسنرحل عاجلاً.

ولقد صدق حدس دافريني، فإن وجود انطوانيت في قرية دافراي لم يكن للقضاء على وساوس إبنته.

«من أموري إلى انطوانيت»

«طلبت إلي يا عزيزتي انطوانيت أن أوافيك بأنباء نقاهة مادلين. ولقد أحسنت إذ تقدمت إلي بهذا الطلب، فليس من يستطيع ذلك خيراً مني فوق أني أتوق إلى الكتابة إليك عنها إذ لا أستطيع الحديث. كنت أسائل نفسي كل ليلة خلال الأسبوع الأول من رحيلك «هل تكتب لي الحياة أم الموت؟»، إذا كانت حياة مادلين في كفة الأقدار، أما اليوم ففي وسعي أن أقول «سوف أعيش» لأنني أستطيع أن أقول «سوف تعيش». إن حبي لمادلين بريء عميق لا عهد بمثله لأحد من العاشقين وإذا ماتت فلا مصير لي عن الموت أيضاً، ولكن الله قد أبى ذلك، وهأنا أرفع إليه آى الشكر والحمد.

وقد أبى المسيو دافريني أن يصرح بنجاتها من الخطر قبل الأمس، ومن العجيب انه أصر على رحيلي إذا شئنا لها إاستكمال البرء والشفاء، ولا ريب أن وعكة المرض لا تزال تملك عليها دقة الحس والإدراك، فما كادت تعلم أنها ستمكث في نيس حتى ألحق بها حتى راحت تتعجل الرحيل، وزاد من عجبي لذلك أن أباها كان قد أنبأها أنك لا تستطيعين مصاحبتها.

أجل إنها تظن أني لا أرحل قبلها، وإن كان المسيو دافريني قد أخبرني أني سأرحل بعد أسبوع، وما أحسبها تستطيع السفر بحال قبل إنقضاء ثلاثة أسابيع. غادرت مادلين فراشها اليوم لأول مرة إذ حملها أبوها إلى مقعد كبير أعد لها بجانب النافذة، ولكنها لم تحتمل مع ذلك هذا العناء اليسير، و كاد أن يغمى عليها لولا أن أدركتها مس براون بالمنبهات. للأسف غيرها المرض ولكنها مع ذلك جميلة فاتنة، بل هي

أجمل ما رأيتها في حياتي. أي ربي أتقوى هذه المخلوقة الرقيقة على إحتمال ما في الحياة الإنسانية من أفراح وأتراح دون أن تسحقها وطأتها؟ أباها ليساوره هذا الإشفاق، فهو يدنو منها في كل ربع ساعة ويجس نبضها. وفي الساعة الرابعة أصر على عودتها إلى فراشها برغم معارضتها وتأبيها، وحملها بين ذراعيه فسره أن إستطاعت إحتمال هذا التعب الطفيف. وكنت إذ ذاك بقاعة الإستقبال أعزف لحناً من ألحان شوبير، وفيما أنا أهم بالانصراف أقبلت مس براون وطلبت إليّ الاستمرار في العزف كرغبة مادلين ففعلت. ولما عدت إلى مخدعها ألفيتها جذلة ومتهللة.. ثم مالت نحوي وهمست في أذني:

– إعزف لي يا أموري ذلك اللحن الذي رقصنا عليه معاً. أتعرفه؟

على أني خشيت عاقبة إصغائها إلى هذا اللحن فزعمت أنني لا أذكره، وطلبت إليّ عزفه في الغد، فوعدتها بذلك. وقد ذهب المسيو دافريني ثلاث مرات إلى غرفة ابنته فيما بين الساعة العاشرة مساء والسادسة صباحاً فكان يجدها مستغرقة في نوم هادىء. وأنبأته مس براون إنها لم تستيقظ خلال ذلك الوقت سوى مرتين لتناول بضع قطرات من شراب مسكن هيأه لها والدها ثم تعود إلى النوم. وأخبرته هذا الصباح بما طلبته مني ففكر برهةً ثم هز رأسه قائلاً:

– أتمنى أن ترحل.

– ولكن أأعرف هذا اللحن أم لا؟.

– لا بأس من عزفه أن سأظل قريباً منك، ولكن يجب أن تنصاع

لأمري في الحال حين أشير إليك بالاستمرار في التوقيع أو الكف عنه..

ودخلت الغرفة فرأيتها بادية الانشراح، واستقبلتني قائلة: لقد نمت الليلة نوماً هادئاً حتى لأشعر بالقوة في هذا الصباح، ويخيل إليّ أنه لو سمح لي أبي لاستطعت أن أمشي بل أطير. ولكنه يزعم أنه يعرفني خيراً مما أعرف نفسي، ويأبى ألا أن يشدني إلى ذلك المقعد البغيض يوماً آخر.

قلت: ولكنك تنسين يا مادلين إنك لم تكوني تطمعين أمس الأول في أكثر من الجلوس على هذا المقعد، وأنك أنفقت به نهارك قريرة هانئة.

أجابت: أجل! ولكن ما راقنا بالأمس قد لا يروقنا اليوم وليس أحب إلى الآن من الاضطجاع على تلك الحشائش بالحديقة في ظلال خميلة الورد.

فقال الوالد: يسرني أنك قريبة الرضا، وستكونين هناك بعد ثلاثة أيام.

فهتفت مادلين وهي تصفق بيديها: أحق ما تقول يا والدي؟

أجاب: لك أن تسيري اليوم إلى هذا المقعد البغيض ولكني أشترط أن يكون هذا بمساعدتي أنا ومس براون.

مالت عليّ هامسة: هل راجعت لحن الفالس؟

فأومأت بالإيجاب. ثم ذهبت مع أبيها لتناول الإفطار، وعدنا إليها

في الساعة الحادية عشرة. وبعد دقائق معدودات كانت جالسة بجانب النافذة تنظر إلى الحديقة في سرور. على أنها لم تلبث أن أبدت إمارات الضجر، فلم يغب هذا عن المسيو دافريني الذي يقرأ كل خاطرة من خواطرها، ويستشف كل خالجة من خوالجها. واستأذن في الخروج نحو ساعة فوعدته أن ألازمها حتى يعود. وما كاد يغادر الغرفة حتى قالت مادلين: أسرع بتوقيع اللحن.

– ولكنك لا تستطيعين الانتقال إلى قاعة الإستقبال.

– أعرف ذلك فما أقوى على الوقوف. ولكن أترك البابين مفتوحين.

وسرت إلى قاعة الإستقبال واثقاً أن المسيو دافريني يلاحظنا من حيث لا نراه، وجلست أمام البيانو وأنا أرى مادلين من خلال البابين المفتوحين. وما كدت أفعل حتى سمعت صوتاً يهمس من خلفي: إبدأ.

ونظرت فإذا المسيو دافريني جالس خلف الستار. وأخذت في العزف وكان اللحن شجياً يثير في النفس الأسى والشجن، على أنه خيل إليّ أنني أرى مادلين تنهض من مقعدها كما يرى المرء الأشباح من خلال الضباب، فإلتفت نحوها، وإذا بها واقفة. هممت بالكف عن العزف، ولكن المسيو دافريني إبتدرني قائلاً:

– إستمر!

ومضيت في العزف دون أن تفطن مادلين إلى ما كان من ترددي.. وكأن تلك الفتاة الواهنة كانت تستمد من الموسيقى قوةً وعزيمة، فقد

وقفت لحظة، ثم رأيت تلك العليلة المنهوكة التي لم تقو على المسير من سريرها إلى النافذة بمساعدة أبيها ومربيتها إلا بشق النفس، ورأيتها تتقدم نحوي في خطو وئيد ولكنه مطمئن ثابت، دون أن تعتمد على الأثاث والجدران. ونظرت إلى المسيو دافريني، وهممت بالتوقف عندما رأيت وجهه الجاد الممتقع ولكنه همس: إستمر! إستمر! ومضيت في عزفي حتى بلغت الأنغام أوجها وأخذت مادلين تتقدم حتى وقفت منحنية فوق كتفي. وكان المسيو دافريني قد إنسل من الباب الآخر ودار حتى وقف خلفها ثم قال: استمر يا أموري! مرحى يا مادلين! ماذا كنت تعنين إذن عندما زعمت هذا الصباح أنك خائرة القوى؟ وكان الأب المسكين يضحك ويرتجف في وقت واحد وقد إنعقدت فوق جبينه قطرات العرق..

وأجابت مادلين:

– آه يا والدي العزيز.. إن الموسيقى تفعل بي فعل السحر ويخيل إلي أنني لو كنت ميتة ملقاة تحت التراب والركام وسمعت هذه الأنغام الشجية لنفضت ثوب البلى وخرجت من القبر!

قال: أجل يا إبنتي، ولكن ما ينبغي لنا أن نسيء إستخدام هذه القوة فاعتمدي على مساعدي يا عزيزتي وإمض أنت في عزفك يا أموري.

ثم همس لي: إنتقل من هذا اللحن إلى صوت هاديء ودعه يتلاشى في الفضاء شيئاً فشيئاً. فصدعت بأمره إذ علمت أنه لابد من مواصلة هذا العزف حتى تعود إلى مقعدها وإلا تداعت قواها مرة واحدة. ولما

نهضت للذهاب إلى مادلين لقيني أبوها عند الباب وسار بي إلى قاعة الإنتظار ثم قال: إنها نائمة فلا توقظها. وهأنت ترى يا أمورى ضرورة رحيلك فلو حدث هذا في غيبتي ولم أوجهه توجيهاً دقيقاً لوقع مالا أجرؤ على وصفه.. قلت: ولكن مادلين لا يخطر ببالها أنني راحل بهذه السرعة.. أجاب: لا تخف فستطلب هي إليك أن ترحل.»

«من أموري إلى انطوانيت»

كان المسيو دافريني مصيباً.. فقد طلبت إليّ مادلين الرحيل.. وسأرحل بعد ستة أيام.. كنت مع وصيي بغرفة مادلين مساء الأمس.. وقد أطرد تحسنها، ولم تضر بها نغمات الموسيقى كما كنت أخشى.. وبعد أن تحدث المسيو دافريني عنك طويلاً، وأثنت عليك مادلين، أنبأها والدها بأنك ستعودين يوم الإثنين التالي. أجفلت مادلين وتدافع الدم إلى وجهها، ولكنه ما لبث أن إرتد وخلفه شاحباً. وحاولت أن أوجه نظر المسيو دافريني إلى ما عراها. ولكني رأيته ممسكاً بيدها فعلمت أنه لا يخفى عليه شيء من أمرها. وكان اليوم التالي موعد خروجها إلى الحديقة كما وعدها أبوها، وألفيتها لا تكترث لذلك على رغم ما كانت تبديه من قبل من التشوق واللهفة إلى الإستمتاع بالهواء الطلق والزهور الجميلة الناضرة، فأخذت أترقب الفرصة لسؤالها عما بها، ولكن جوزيف الخادم جاءني برسالة رسمية من وزير الخارجية يطلب إلى مقابلته.

أطلعت مادلين على الرسالة وقد أفعمت نفسي هما إذ كنت أعرف ما تنطوي عليه.. ونظرت إلى مادلين قلقاً حائراً فأدهشني أن رأيتها مشرقة الوجه منبسطة الأسارير. وظننت أنها لم ترَ في الرسالة ما يريب

ولم أشأ الإفضاء إليها بالحقيقة.. فتركتها مع أبيها ووعدت بالعودة بعد مقابلة الوزير. وقد صح ما توقعت إذ قال لي الوزير أنه جد من أحداث السياسة ما يستوجب التعجيل بسفري إلى نابولي، وترك لي تحديد أقرب موعد ممكن وبعد أن شكرته ووعدته بموافاته بموعد سفري في نفس اليوم عدت إلى بيت المسيو دافريني وأنا لا أدري كيف أكاشف مادلين بهذا النبأ الأليم..

على أنها لم تكد تراني حتى سألتني:

– لقد قابلت الوزير يا عزيزي أموري؟

أجبتُ في تردد ووجل:

– أجل.

– إني أعرف سبب المقابلة فقد إلتقى الوزير بأبي في البلاط وأخبره أنك راحلٌ سريعاً.

– ثقي يا عزيزتي مادلين أنني أوثر التخلي عن هذه المهمة بل عن مستقبلي كله على أن أفترق عنك لحظةً واحدة.

– ما هذا الحمق يا أموري؟ما ينبغي لك أن تفعل شيئاً من ذلك وخليق بنا أن نلتزم العقل، وأنه ليحزنني أن تلومني يوماً ما على أني هدمت مستقبلك حين كان يبشر بالنجاح. ونظرت إليها وقد عقد الدهش لساني، فما أدري كيف تحولت من أثرتها مرة واحدة، وآثرت الإستجابة لصوت العقل وعهدي بها لا تعرف لغير الحب سلطاناً على نفسها.. وإستطردت قائلة:

– لقد فكرت أنا وأبي في الأمر ملياً. إنني لا أقوى الآن على ركوب البحر، وسترحل أنت الآن ثم ألحق بك وأنتظرك في نيس ريثما تفرغ من مهمتك في نابولي.

فسألتها:

– ومتى أسافر إذن؟

– صباح يوم الأحد.

ثم أردفت: ستسافر بمركبة البريد إلى شالون، وتبلغ مارسيليا في اليوم التالي حيث تستقل الباخرة التي تقوم في أول الشهر القادم، فتصل إلى نابولي في اليوم السادس. وإني أمهلك عشرة أيام للفراغ من مهمتك وهي ليست بالأجل القصير، ثم ترحل إلى نيس فتصل إليها في السادس والعشرين أو الثامن والعشرين، وستكون هناك قبل وصولك بخمسة أو ستة أيام. ولسوف تكون نيس فردوسنا المردود، وبعد أن أستمد القوة والعافية من شمس إيطاليا وحرارة قبلاتك نعقد زواجنا ثم يعود والدي إلى باريس ونواصل رحلتنا معاً. ألا يروقك هذا الترتيب؟

أجبت في كمد:

– أجل، ولكنه لسوء الحظ يبدأ بالفراق.

– إن عظيم حبي لك يحملني على الرضا بالفراق في سبيل مستقبلك.

وعبثاً حاولت أن أعرف الدافع الخفي الذي تحول بها إلى الجلد والتعقل، فهلا تعجبين مثلي من تبدلها يا عزيزتي انطوانيت؟ إن قلب

«من أموري إلى انطوانيت السبت.. الساعة ٥ مساء»

سأرحل غداً يا عزيزتي انطوانيت، ولم أكتب إليك منذ أربعة أيام إذ لم يكن لدي جديد من الأنباء. وقد كان كل يوم من هذه الأيام شبيهاً بسابقه لا يختلف عنه إلا في ازدياد إعتماد مادلين على نفسها تحت ملاحظة أبيها، وانه لمثال كامل للحب الأبوي العميق، وهي الآن تنهض وحدها، وتخرج إلى الحديقة وحدها، وتعود منها وحدها، ولا تسمح لأحد قط بمساعدتها كأنها الطفل العابث حين ينشط من وثاقه. ولقد كشفت الأيام الأخيرة عن مدى حبها لك وتعلقها بك يا عزيزتى انطوانيت، فلا يكاد يعروها شيء من الهم لو شك رحيلي حتى يقول لها المسيو دافريني «تشجعي يا عزيزتي. لن تكوني وحيدةً، فسأبقى إلى جانبك، وستأتي كذلك انطوانيت يوم الإثنين» وإن هو إلا أن يذكرها بقرب عودتك حتى تنجلي عن وجهها سحائب الهم والإنقباض. ولكني أرى المسيو دافرين يرقب الساعة كلما دنا موعد رحيلي وقد تبعني اليوم عندما غادرت غرفتها في الساعة الخامسة، وإنتحى بي جانباً وقال لي: سترحل سريعا يا عزيزي أموري، وفي وسعك أن ترى مدى رزانة مادلين وتعقلها، وأنها تسترد عافيتها حين تبتعد عن الإنفعالات العنيفة والعواطف المشبوبة. فينبغي أن تكون حريصاً محاذراً، وأن تعفيها من آلام الوداع.. فإن لكل كلمة من كلماتك ونفس من أنفاسك تأثيراً قاتلاً على هذه البنية الحساسة الضعيفة الأعصاب، فيجب أن تبدي لها حباً رصيناً خالياً من العنف والتفزز. ووعدت المسيو دافريني ألا أنسى رغائبه، وجئت إلى

غرفتي لأكتب إليك هذه السطور، وسأختمها الآن إذ أسمع مادلين تسأل عني».

«الساعة ١٠ مساء »

عنفيني ما شئت يا انطوانيت إذ أشعر أنني إقترفت خطأً كبيراً.

وجدت مادلين وحدها، وأسرت إلى أنها ترغب في الإجتماع بي على انفراد قبل سفري، وطلبت مني تدبير هذا اللقاء. ولقد كان الوعد الذي قطعته على نفسي للمسيو دافريني لايزال يتردد في أذني فحاولت جهدي التملص مما تطلب، وإنها لسعادةٌ كنت أبذل في سبيل الحصول عليها حياتي في أي وقت آخر. وقلت أنني أرجح أن مس براون قد تلقت أوامر قاطعة من المسيو دافريني ولن تفضي عن شيء من هذا القبيل، ولكن مادلين أجابتني:

– وما حاجتنا إلى إطلاع مس براون؟

– وكيف نتقي ذلك؟ إن غرفتها لا يفصلها عن غرفتك غير حاجز رقيق وإذا ترامي إلى سمعها أي صوت ظنتك مريضة وجاءت في الحال فتراني معك.

– هذا حق إذا جئت أنت إلى هنا، ولكن ألا تستطيع الذهاب إلى الحديقة ؟

– الحديقة.. في الليل !

– ألم تسمع أبي يقول بالأمس أن الوقت الذي يخشى منه هو ما بين الساعتين الثامنة والتاسعة مساء حيث يسقط الندى، ولكن الليل

يصير بعد ذلك دافئا كالنهار؟. وسأتدثر فوق ذلك بوشاحي الثقيل.

– ولكن هل من الصواب أن نتفرد ببعضنا على هذا النحو تحت جنح الظلام؟

– ولم لا؟ ألا نتفرد ببعضنا طوال النهار؟

– ولكن النهار.. النهار..

– أين الفرق؟ ألم تعترض على مرافقة أبي لنا في رحلتنا لأنك تريد أن نكون وحدنا ؟

– ولكننا لا نقوم بالرحلة إلا بعد عقد الزواج.

– أجل إن الناس ليبيحون للمرأة المتزوجة ما لا يباح للفتاة العذراء، كأن عقد الزواج يحيل الطيش رزانة، والنزق حكمةً وثباتاً! إننا كالزوجين تماماً، ولولا هذا المرض المشئوم لتم زواجنا منذ زمن بعيد.. هيا.. إنك لا تأبى على هذه الأمنية؟ إنك راحل ولست تدري ما يكلفني بعدك من ألم وعذاب، فلا أقل من أن تزودني ببضع كلمات رقيقة عذبة ترفه عني وتمدني بالشجاعة والجلد.

ألفيت نفسي في موقفٍ حرج، ورأيت أن إسترسالي في المعارضة خليق بأن يسيء إليها ويغضبها، فآليت على نفسي أن أكون رقيباً على عواطفنا المشبوبة فلا يجرفنا سيلها، ووعدتها أن أكون بالحديقة في الساعة الحادية عشرة، وهنا لحق بنا المسيو دافريني. وقد غادرنا الآن غرفتها فقال والدها:

– هأنت ترى يا أموري إنني بررت بوعدي وتركتكما تخلوان

ببعضكما برهة، وقد كان مسلكك حكيماً رصيناً، وإنك لترى مادلين هادئة وستقضي ليلة مطمئنة وادعة، وسوف أترككما في الصباح برهةً أخرى، وستجد زوجتك المقبلة بعد ستة أسابيع سليمةً قويةً في نيس.

خالجني ندمٌ هائل، وكدت أعترف له بما حدث، ولكن ما عسى أن تقول مادلين؟ إن هذه الصدمة ستكون أضر بها من اللقاء المختلس. ثم إني أقسمت أن أكبح جماح عواطفي، ها هي الساعة تدق الحادية عشرة، فعمي مساءً يا انطوانيت، إني ذاهبٌ للقاء مادلين».

«**الساعة ١٠ صباحاً**»

حالما يصلك هذا يا انطوانيت غادري قرية دافراي وتعالي في الحال إلى باريس. نحن في أشد الحاجة إليك. رباه إن مادلين تموت! آواه! ويلٌ لي من شقي تاعس.. تعالي! تعالي سريعاً!

«من المسيو دافريني إلى انطوانيت»

مهما تكن حاجتنا إليك، ومهما يزعجك ما تقفين عليه من الأنباء عن حالة إبنتي، فلا تأتي يا عزيزتي انطوانيت حتى تسأل عنك مادلين.

واحسرتاه! شد ما أخشى أن يكون هذا عاجلاً!

أرثي لي فإنك تعرفين كيف أحبها ؟

خالك ليوبولد دافريني

لقاء في الليل

غادر أموري غرفته بعد أن ختم رسالته إلى انطوانيت، ووقف بباب مادلين متسمعاً فلم يسمع حساً ولا حركة، وعلم أنها تظاهرت بالنوم للتخلص من مس براون، فسار إلى الشرفة وإنسل منها إلى الحديقة. كان البيت كله مطفأ الأنوار عدا نافذة المسيو دافريني، فوقف أموري يرنو إليها. وخامر أموري شعور بالندم والخجل، وفكر في أن يعود أدراجه ويخبر مادلين من خارج مخدعها أن أباها لا يزال مستيقظاً وقد يراهما، ولكن شاء القدر أن ينطفيء النور حينذاك في غرفة المسيو دافريني، ويبدو في الشرفة شبح لا يلبث أن يتسلل الى الحديقة.

وما أبصر أموري حبيبته حتى شب الهوى المتضرم على بصيرته فأنساه كل شيء، وهرع لملاقاتها، وأخذها بين ذراعيه وهي تضطرب اضطراباً عنيفاً، إذ لم يغب عنها أنها تجاوز الصواب فيما تفعل.

وسار بها الى خميلتها المحبوبة حيث أجلسها بجانبه، وكان الليل دافئاً، والنجوم الزاهرة تتألق في كبد السماء، والنسيم يعبث بأغصان وأوراق الشجر.

وكان محالاً ألا يُحدث هذا كله أبلغ الأثر في نفس مرهفة الحس كنفس مادلين، فرفعت الفتاة وجهها إلى السماء الصافية مصغية إلى أناشيد الهوى التي تترنم بها الطبيعة. وقد انحدرت على وجنتيها دمعتان

متألقتان كأنهما قطرتان من الندى سقطتا من الفنن الذي يظلها.

وقالت مادلين:

– يالها من ليلة رائعة يا أموري! كأن الله قد أتاح لنا هذه السعادة حتى تلازمنا ذكراها طوال الفراق.

أجاب:

– أجل.. وإنه ليخيل إليّ أنني لم أعرف قبل الليلة الحياة والحب وهذا الليل الساحر يثير في نفسي عواطف لا عهد لي بها. إني أحبك يا مادلين.

كان في صوت الفتي من تضرم الوجد ما جعل الفتاة ترتجف من الرأس إلى القدم. وغمغمت وهي تميل برأسها على منكبه:

– وأنا أحبك أيضاً.. أحبك أشد الحب.

وأغمض أموري عينيه لذةً وانتشاء وقال:

– يا إلهي؟ ما أكاد أملك التفكير في فراقنا غداً. فراقاً يدوم ستة أسابيع، وقد يمتد شهرين كاملين.. فإذا ما التقينا بعده حال وجود والداك دون ارتمائي على قدميك وتقبيلها.. وضمك إلى صدري.. إني لأرى التخلي عن هذه المهمة من أجلك.

– كلا.. كلا.. إن أبي على حق وينبغي أن تسافر يا أموري يجب أن أزداد قوة قبل أن أحتمل وطأة حبك العظيم، وقد رأيت أنه كان يودي بي مرتين. أتعلم يا أموري أنه كان من الممكن إذ ذاك أن أقضي نحبي وبدلاً

من أن أكون إلى جانبك الآن حية سعيدة مرحة، كنت أثوي مضمومة اليدين في لحد ضيق.

فهتف الشاب مرتاعاً:

-كفي عن هذا الحديث بربك وإلا جننت!

فصمتت الفتاة برهة والنسيم يداعب شعرها، فرفت خصائله على وجه أموري وأذكت في صدره لواعج الصبابة والهوى فطوق خصرها بذراعيه ومس ثغرها بشفتيه، فأفلتت من الفتاة صيحة ألم. وما سمع أموري هذه الصيحة حتى ارتد عنها مفزوعاً وإذا بها تضع إحدى يديها على جنبيها، وتضغط بمنديل في الأخرى على فمها.

وأشرقت في ذهنه الحقيقة المروعة، فجثا عند قدميها، وإنتزع المنديل من يدها، ورآه ملوثاً بالدماء!

وحملها بين ذراعيه وراح يعدو كالمجنون حتى بلغ مخدعها فاضجعها على فراشها، وأخذ يجذب حبل الجرس المتصل بشرفة المسيو دافريني في شدة وعنف. وشعر أنه لا يجرؤ على مواجهة الأب التاعس فاندفع خارجاً من مخدعها ولاذ بغرفته كأنه اقترف جريمةً شنعاء.

نكسة قاسمة

وقف أموري بجانب باب غرفته يتسمع الأصوات وهو في قلق يملك عليه أنفاسه، دون أن يجرؤ على الذهاب لاستطلاع ما حدث، وطرقت سمعه أخيراً خطوات تصعد السلم وتتجه إليها وما لبث أن أبصر جوزيف الخادم فسأله همساً:

–جوزيف.. كيف حال مادلين؟

وأعطاه جوزيف رسالة دون أن ينبس بحرف، ولم تكن تحوي غير سطر واحد بخط المسيو دافريني: «سوف تموت هذه المرة وأنت قاتلها».

وللمرء أن يتصور كيف أنفق أموري تلك الليلة المريعة الهائلة. وكانت غرفته فوق مخدع مادلين، فقضى الليل مرهفاً أذنيه عله يسمع من عمدها صوتاً. وكان يصل إلى سمعه بين الفينة والفينة خطوات مسرعة فيعلم أن أزمة جديدة قد وقعت، أو يترامى إليه سعال هائل يمزق نياط قلبه.

وتبلج الفجر أخيراً، وهدأت الأصوات في غرفة مادلين شيئاً فشيئاً.. فعلم أنها استغرقت في النوم، وهبط إلى قاعة الاستقبال الصغيرة، ووقف ينصت بالباب المفضي إلى مخدع مادلين، وهو لا يجرؤ على الدخول، ولا يرغب في العودة إلى غرفته.

وفتح الباب فجأة فارتد أموري مفزوعاً، وخرج من الشرفة المسيو دافريني.. وازداد وجهه قسوة وصرامة عندما وقع بصره على الشاب.

انتاب الفتى يأس قاتل، وخر على ركبتيه أمامه وهو يهتف:

– إغفر لي!

ظل هكذا برهة وهو يدفن وجهه بين راحتيه، وصدره تحرقه الزفرات والأنات، والعبرات تهطل من عينيه. ثم شعر بالمسيو دافريني يأخد راحتيه المضمومتين بين يديه ويقول:

– إنهض يا عزيزي أموري. ليس الذنب ذنبك.. إنما هو ذنب الطبيعة التي أرادت أن يكون الحب حياة لقوم وموتاً لآخرين. ولقد كنت أتوقع هذا كله، ولهذا كنت أتلهف إلى رحيلك.

وهتف الشاب ملتاعاً:

–أنقذها يا أبي العزيز.. أنقذها بربك ولو حرمت رؤياها إلى الأبد!

– أتسالني إنقاذها! أتسالني هذا وأنت تعلم أنني أبذل حياتي فداء لها: كلا.. إنما ينبغي أن ترفع توسلاتك إلى الله لا إليّ.

– أليس لديك من أمل؟ أترى القضاء قد حل ؟

– لك أن تطمئن يا أموري إلى أنني سأفعل كل ما في وسعي، ولكن ثق أن العلم لاحول له ولا قوة اذا ما خطا الداء المدمر هذه الخطوات السريعة.

وتبادرت دمعتان كبيرتان من عيني الطبيب الشيخ، فقرع أموري يديه في يأس أثار شفقته، فتأبط ساعده وقال:

– أعرني سمعك يا أموري. ليس في وسعنا الآن سوى أن نوفر لها في أيامها الأخيرة على الأرض كل ما نستطيع من الراحة والهدوء.. أنا بعلمي، وأنت بحبك على كل منا أن يقوم بواجبه، عد إلى غرفتك، وسأرسل إليك بمجرد ما تستطيع مادلين أن أراك..

أثقلت أموري رقة الوالد المنكود وعطفه، ونالت من نفسه ما لا ينال أشد اللوم والتعنيف، فارتد إلى غرفته ودفن رأسه بين يديه، وظل جامداً مستغرقاً لا يشعر بمرور الزمن حتى أيقظه من إستغراقه صوت جوزيف وهو يقول:

– أمرني المسيو دافريني بأن أنبئك أن المدموازيل تستطيع الآن رؤياك.

سار أموري في إثر الخادم دون أن ينبس بكلمة، فلما بلغ باب المخدع وقف واجفاً متهيباً. وعرفت الفتاة المسكينة وقع خطاه فقالت في صوت جهدت أن ترفعه: تعالَ يا أموري.. تعالَ يا عزيزي.

وكاد الشاب يندفع إلى المخدع متلهفاً لولا أن ذكر ما يحدث بحبيبته من سيء الأثر، فلاذ بأهداب العزم والشجاعة، وفتح الباب في خفة ورفق وتقدم نحوها بثغر باسم. وبسطت مادلين ذراعيها نحوه وحاولت الجلوس، ولكنها ضاقت بذلك المجهود فانثنت في مضجعها خائرة منهوكة. وما رأي الشاب هذا حتى عصاه عزمه، فصاح جزعاً وخر

إلى جانبها. ونهض المسيو دافريني. غير أن الفتاة مدت يدها في ضراعة مؤثرة، فعاد إلى جلسته. ومال برأسه على يدها الضعيفة المسترخية. وتلا ذلك صمتٌ طويلٌ لا يقطعه غير زفرات أموري ونحيبه. كانت في تلك الحالة الخطيرة التي انتابتها منذ أسبوعين، غير أنها الآن نكسة لا أمل في البرء منها.

رجفة شديدة

«**من أموري الى أنطوانىت**»

هل تكتب لى الحياة أم الموت؟ هذا هو السؤال الذي ألقيه على نفسي وأنا أرى مادلين تزداد كل يوم ضعفاً، ولست لأخادع نفسي بعد اليوم، فقد كذبت أول الأمر بحكم الطبيب، ولكن كوني على ثقة يا انطوانيت أنه سيكون ثمة قبران لا قبر واحد، فهيهات أن أعيش بعدها.

ألا ما أكرم قلب المسيو دافريني يا انطوانيت! إنه منذ كتب إلي تلك الرسالة لم يسمعني كلمة واحدة من اللوم والتعنيف.. ولا يزال يدعوني ولده، كأنه يعلم أن مادلين لي، لا في هذا العالم فحسب، وإنما في العالم الآخر أيضاً. مسكينة يا مادلين! ليس يخطر ببالها أن أيامنا معاً قد غدت معدودة فإن من عجائب المرض الذي يفتك بها أنها لا ترى الخطر ولا تفتأ تتحدث عن المستقبل وترسم له الخطط في تفاؤل وإستبشار. وكثيراً ما تعنفني إذ لا أعينها على تشييد القصور في الهواء.

ولقد دهشت إذ قالت لي هذا الصباح:

– إننا الآن وجدنا أيها الحبيب فجئني بورقة ومداد لأني أريد أن أكتب شيئاً.

وظننتها قد أدركت الحقيقة فأرادت أن تكتب وصيتها. وجئتها بما طلبت ولكنها لم تكد تهم بالجلوس حتى تهافتت على فراشها وسقط

القلم من بين أصابعها. وطلبت إلى أن أتولى الكتابة عنها، وراحت تشرح لي تفصيلاً دقيقاً للحياة التي سنحياها معاً، وتحدد لكل يوم عملاً بعينه. ولكني أعلم ان المسيو دافريني قد حدد الغد لعقد هيئة مؤلفة من ستة من الأطباء لاستشارتهم في أمرها، لأن حنان الأب يحدو به إلى الشك في صحة تشخيصه كطبيب.

ستنعقد الهيئة من ستة رجال يتشحون بالثياب السوداء، بل من ستة قضاة سينطقون بحكم الحياة أو الموت على هذه المريضة البريئة المسكينة، وإنها لمحكمة رهيبة لا عمل لها غير إعلان قضاء الله! وهم لن يروا مادلين إذ يخشى أبوها أن يبدد هول مطلعهم أوهامها. ولن يعلموا كذلك أن المريضة هي إابنة زميلهم، لأنه يخشى أن تحملهم الشفقة عليه على إخفاء شيء من أمرها عنه. وسأحضر اجتماعهم كذلك، ولكنى سأختبيء خلف الستار فلا يشعرون ولا يشعر المسيو دافريني بوجودي. وقد سألته بالأمس عن غرضه من هذه الاستشارة فقال:

– ليس لي غرض معين ولكنه أمل واهن.

فصحت كما يتعلق الملاح الغريق بآخر لوح من سفينته:

– وما هو هذا الأمل؟

– أرجو أن أكون مخطئاً في التشخيص أو طريقة العلاج ولهذا دعوت جماعة يتبعون في العلاج أساليب لا أوافق عليها. وإني لأسال الله أن يكونوا أوفر مني علماً وأهدى طريقاً، وأن يثبتوا أنني أجهل بالطب من حلاق القرية. وأقسم لك يا أموري أنهم إاذا وفقوا إلى ذلك فسأسر

بجهلي أشد السرور. دع أحدهم يرد على إبنتي، وعليك زوجتك، وسأقول له: أنت وحدك ملك صناعتنا وفخرها، فإليك ما اغتصبت من المجد والشهرة والثروة، لأنك أولى بها مني!

وفي الساعة العاشرة أنبأني جوزيف أن الأطباء مجتمعون بمكتبة المسيو دافريني: فدلفت إليها، واختبأت خلف باب زجاجي. كانوا ستة من مشاهير الأطباء، وليس في العالم بأسره من يدانيهم مقدرة وعلماً، بيد أنهم انحنوا احتراماً واجلالاً أمام المسيو دافريني كما ينحني الأتباع أمام الملك العظيم. وكان الناظر إليه يخاله ساكناً هادىء البال، ولكن بلوته في الشهرين الأخيرين وهو يكافح الموت ويرد عن إبنته عواديه، فلم يغب عني ما يعتمل في نفسه من التأثر والإنفعال. وبدأ بالكلام فأنبأهم بما حمله على استشارتهم، وروى لهم قصة موت والدة مادلين وضعف بنية الطفلة في طفولتها، وشبابها وسرد لهم مخاوفه عندما اكتملت أنوثتها ومازج فؤادها حبي.

ثم تحدث عن ممانعة الأب في زواج إبنته، وعن تلك النوبات التي كادت تقضي عليها. فلما أوشك على الوصول إلى الكارثة التي عرضت حياة المريضة للخطر من جديد، تولاني الرعب والجزع إذ حسبته سيلوموني. ولكنه لم يزد في بسط الحقائق مجردة من كل تعليق. وبعد أن فرغ من سرد حياة المريضة أخذ يصف أعراض المرض وتطوراته وصفاً دقيقاً شاملاً، ويصور لهم فتكه الهائل بالرئتين كأنه يشرح ابنته وهي لا تزال على قيد الحياة حتى لقد فهمت كل شيء على جهلي بالعلم.

يالله! أن هذا الأب قد رأى كل هذا، وقوى مع ذلك على احتماله.

على أن أشد ما في الأمر سخرية وإيلاماً، هو أن كل كلمة من كلماته كانت تُقابل من سامعيه بالتهنئة وأشد الإعجاب! ولما فرغ من واجبه الثقيل البغيض، ووصف دقائق الداء الذي يفتك بنا نحن الثلاثة: أقروا له بالسيادة عليهم جميعاً، وطفقوا يطرون حذقه الفائق وبصره الناقد وبراعته الفذة. وكان المسيو دافريني أثناء ذلك يمسح العرق من جبينه فقد تبدد أمله الأخير وأيقن أنه لم يخطىء قط. وراح يصف ما فعل لمكافحة المرض، ويسهل أمامهم قائمة بالأدوية التي استعملها، والأسلحة التي استخدمها في مدافعة الداء في غير وهن ولا كلل. وسألهم ماذا ينبغي أن يفعل أكثر من ذلك؟ وصمتوا فلاحت في محيا المسيو دافريني بارقة من الأمل، إلا أنه أساء التقدير والتأويل، فما صمتوا إلا إعجاباً وإكباراً، وها هم يمزقون فؤاده بما يزجون إليه من آيات الثناء المستفيض!

ورأيت الشيخ وقد امتقع وجهه امتقاعاً شديداً، وتهاوى على مقعده مضعضع القوى، وراح ينشج نشيجاً مؤلماً، فهرعت من مخبأي وإرتميت إلى جانبه. وسألوه:

– ولكن ما صلة المريضة بك؟

فأجاب الأب التعس:

– إنها إبنتى!

وجم الأطباء، وإنسلوا صامتين. وعدنا بعد ذلك إلى غرفة مادلين فاستقبلتنا بإبتسامة عذبة، وهي لا تعلم أنها في نظرنا مقضي عليها بالموت.

«من أموري إلى انطوانيت»

«كان علي أن أسهر الليلة بجانب مادلين، إذ نتناوب السهر عليها أنا والمسيو دا فريني ومس براون مع إحدى الممرضات. وقد تمسكت بحقي برغم تعبي الشديد. فانصرف المسيو دافريني دون أن يعترض. وكانت مادلين مستغرقة في النوم كأن أيامها في هذه الحياة ليست معدودة. على أن النعاس أثقل جفني عند منتصف الليل، فأحنيت رأسي على حافة فراش مادلين، وأخذتني سنة من النوم. واستيقظت فوجدت المسيو دافريني واقفاً بجانبي فقال لي:

– هأنت ترى خطأك في إصرارك على السهر هنا. إذهب إلى فراشك يا ولدي وسألاحظها.

لم يكن في صوته شيء من السخرية أو الغضب، بل كان أدنى إلي الرثاء لضعفي، على أنني مع ذلك شعرت بعاصفة قوية من الغضب الأعمى والحسد الشديد لغير سبب. ولكني أعتقد أن مرجع ذلك هو ما يبدو فيه من القوة الخارقة. إنه لمخلوق وسط بين الآلهة والناس، فليس للانفعالات الإنسانية تأثير عليه، وليست به من حاجة إلى النوم أو الطعام وهو دائماً ساهر متيقظ فلا ريب أن الرجل له ارادة من حديد، ولم أكن راغباً في الذهاب إلى غرفتي فخرجت إلى الحديقة، وجلست على المقعد الذي كنت أجلس عليه مع مادلين في تلك الليلة المشئومة الهائلة التي لن تبرح ذكراها خيالي. وكان البيت كله يشمله الظلام، سوى ضوء خافت يبدو من نافذة مادلين وأخذت أتأمل ذلك الضوء الخافت،

فلاح إلى أنه يشبه ذلك القبس الخابي الذي لايزال يتردد في جسم حبيبتي فلما إنطفأ الضوء فجأة وتركني في الظلام عرتني رجفة شديدة، إذ رأيت أن ذلك القبس لن يلبث أن ينطفيء كذلك، وليس يشرق في ظلمات حياتي سراه وعدت إلى غرفتي وأنا أبكي بكاءً مراً».

«من أموري إلى انطوانيت»

«كنت مخطئاً يا انطوانيت، فإن المسيو دافريني مثلي تعرض له ساعات من الوهن واليأس، فقد دخلت مكتبته هذا الصباح فألفيته مكباً فوق مكتبه، وهو يدفن رأسه بين راحتيه. وظننته نائماً، فدنوت منه في خفةٍ وحذر، ولكن سرعان ما تبينت خطئي إذ رفع رأسه عندما سمع وقع خطاي، وأدار نحوي وجهاً كاسفاً بللته العبرات، ولقد كاد قلبي يكف عن الخفقان، فما رأيته في حياتي يبكي قط. وقد كان هدوءه يحملني على الإعتقاد بأنه لم يفقد كل أمل في شفاء مادلين فلما أبصرته باكياً صحت في جزع: أضاعت كل فرصة لإنقاذها؟ أجاب: ليس يغني الآن عنها شيء، ولقد جربت بالأمس عقاراً جديداً فألفيته عديم الجدوى. أواه، ما فائدة العلم والمعرفة؟ ولكن يا إلهي.. ماذا يستطيع العلم أن يفعل بعد أن وصل المرض إلى دوره الحاضر؟ ليس يستطيع سوى أن ينبئني أن إبنتي ستقضي نحبها بعد أسبوع قصير. ثم إستطرد في عنف: كلا! كلا! سوف أنقذها قبل إنقضاء الأسبوع سأكشف إكسيراً أو دواءً جديداً يقهر حتى الموت! سوف أجده ولو اعتصرته من دمائي! لن تموت.. لن تموت! ودنوت منه وطوقته بذراعي لئلا يسقط فقال: أصغ يا أموري. ثمة فكرتان لا تفتآن تلحان على خاطري وتمثلان لي بكل سبيل وشد ما أخشى أن

تدفعا بي إلى الجنون، أما الأولى فهي أننا إذا إستطعنا أن ننقل إبنتي في الحال ودون أن تتجشم شيئاً من التعب والعناء إلى مكانٍ معتدل الطقس مثل نيس أو ماديرا أو بادوا فقد تعيش. أما الخاطر الثاني فهو أنه قد يكشف دواء للداء الذي قتلها في اليوم التالي لموتها... من يدري؟ قد أكون أنا المكتشف لهذا الدواء! ولكني سأتكتمه وأسره في نفسي إذا وفقت إليه. ما الذي يعنيني من بنات غيري؟ كان يجب على أولئك الآباء أن ينقذوا حياة إبنتي! وهنا أقبلت مس براون لتنبئه أن مادلين قد إستيقظت، فرأيت منظراً عجيباً يا انطوانيت، وأبصرت مدى ما أوتي هذا الرجل من القوة على ضبط نفسه وكظم إنفعالاته، إذ رد بقوة إرادته الخارقة ملامحه الناطقة بالألم والعذاب، إلى هدوئها المعتاد، وذهب إلى غرفة مادلين»

«من أموري إلى انطوانيت»

«أي ملك يوشك أن تفقده هذه الأرض..نظرت إلى مادلين هذا الصباح وقد أشرق في وجهها هذا الجمال الذي يفيض على وجوه المشرفين على الموت، فلم يسعني إلا أن أسأل نفسي أليس هذا الصوت العذب الرخيم، والحب الطاهر العميق الذي يضيء في ابتسامتها مما لا يصدر إلا من الروح؟ وهل يمكن أن تموت الروح؟ واعزيزتاه! إنها لتدرك الآن أن نجم حياتها يؤذن بالأفول، فقد وقفت باب غرفتها هذا الصباح ريثما أستجمع شتات جلدي وعزمي قبل الدخول، فسمعتها تقول لأبيها في صوتها العذب الحنون:

– أواه؟ شد ما أشعر بالمرض! ولكنك ستنقذني يا أبي العزيز.. أليس كذلك؟

واستطردت وهي تخفض صوتها:

– لئن مت فلن يعيش طويلاً من بعدي. أجل! أجل! لئن مت أيتها الحبيبة فسأقضي كذلك نحبي!

ودخلت والمسيو دافريني يهم بالجواب، فأومأت إليه بالصمت. لاريب أنها تحسبني جاهلاً بخطورة حالتها، ولا تريد إظهاري على ما يساورها من المخاوف. ومدت يدها الناحلة تشير إلى بالنهوض فوقفت إلى جانبها وطلبت مني أن أذهب إلى قاعة الإستقبال وأعزف لها لحن الفالس مرة أخرى. ترددت قليلاً، ولكن المسيو دافريني أشار إلي بتلبية رغبتها. ولكنها لم تسع إلى هذه المرة يحملها سحر الموسيقى، بل إكتفت بأن همت في فراشها، فلما تلاشى آخر أنغام اللحن تهافتت على وسادتها، وأطبقت جفنيها، وأفلتت من صدرها زفرة عميقة. ثم طلبت إلي أبيها أن يبعث إلى كاهن قرية دافراي الذي تناولت من يده القربان المقدس لأول مرة كي يحضر، وظللنا وحدنا عندما غادر المسيو دافريني الغرفة ليكتب إلى الكاهن»

«من المسيو دافريني الى كاهن قرية دافراي»

«سيدي الكاهن .. إن إبنتي تحتضر وهي ترغب في رؤية أبيها الروحي قبل أن ترجع الى ربها. فأرجو أن تأتي بأسرع ما تستطيع وإني لأسألك خدمةً أخرى وأرجو ألا تعجب من غرابة طلبي؛ كما أرجو أن

تنسى فوق كل شيء أنه صادرٌ من رجلٍ يعدونه جهلاً من أكبر أطباء العصر. والخدمة التي أسألك قضاءها: أعتقد أن بالقرية راعياً مسكيناً يدعى أندريه. وإنه يعرف أدويةً عجيبة يستخرجها من بعض الأعشاب. وإذا صدق الفلاحون في روايتهم، فإنه نجح في حالات يئس منها أمهر الأطباء. ولقد سمعت بما يأتي من العجائب وكل ما يكتنفني مشرق باسم، فكان طبيعياً أن أستقبلها بالشك والإنكار. ولكني أسألك الآن يا سيدي العزيز أن تأتيني بهذا الرجل.

«ليوبولد دافرينى»

لحظة في حزن وأسى

أوفد المسيو دافريني أحد الخدم برسالته إلى الكاهن، فجاء في الساعة الخامسة من المساء ومعه الراعي. وكان هذا الراعي قروياً جاهلاً، وإذا كان المسيو دافريني قد رجا خيراً من تلك الناحية حقاً، فقد خابت آماله عندما سمع أول كلماته. وأخرج الراعي من حقيبته طائفة من الأعشاب، ورأى المسيو دافريني أن الشراب الذي يريد اعتصاره منها لا يضر إبنته ولا يجديها نفعاً، فلم يمانع في أن يمضي الراعي في عمله. وعاد إلى الكاهن قائلاً:

– إن الدواء الذي يقترحه أندريه سخيف ولكن لا ضير منه، وقد تركته يقوم بمهمته. إنه لن يعجل بمنية ابنتي أو يؤخرها ساعة واحدة، وسيوافيها الحمام مساء الخميس أو صباح الجمعة على الأكثر. وهأنت ترى يا سيدي الكاهن أنه لم يبق في هذا العالم ما يوحي إلي بالأمل والرجاء. أجاب الكاهن:

– ضع ثقتك بالله با مسيو دافريني.

– هذا هو ما أردت سماعه منك يا سيدي. لقد كنت دائماً مؤمناً أعتقد بوجود الله، ولكني أعترف لك أن الشكوك كثيراً ما ساورتني.. إني المقر بالإثم والجحود والاجتراء، إني أؤمن..

– آمن فقط فتخلص.

– إني أؤمن بأن الله صالحٌ عظيمٌ رحيمٌ دائم لا يعزب من علمه شيء...

– لكن مع هذا فإنك لسعيد يا ولدي.

فهتف المسيو دافريني وهو يجثو عند قدمي الكاهن:

– أجل أجل.. إن هذا الإيمان المطلق الذي لا يرتفع إليه الشك ليغمر قلبي، وهأنا أجثو على قدميك وأقول: أبت، ليس بين الناس من هو أولى منك بمرتبة القديسين فلقد كانت حياتك كلها مثالاً للإحسان والتقوى، فإصنع معجزة وأعد الصحة إلى ابنتي.. رد الحياة على طفلتي.. فماذا أنت صانع الآن؟

– واحسرتاه! إني لأرثي لك، وشد ما يحزنني أنني لست بالقديس الطاهر الذي تخاله وإنما أنا رجل خاطيء من بني البشر، وما أستطيع مثل هذه المعجزة الخارقة. ليس في وسعي غير الصلاة لمن يملك أقدارنا ومصائرنا. فصاح المسيو دافريني وهو ينهض من جثوته:

– إذن فقدت كل شيء! سيترك الله إبنتى تموت.

وغادر مكتبته وفي إثره الكاهن الذي راعه هذا النحيب. لم يجد دواء الراعي كما كان المسيو دافريني يتوقع، وقضت مادلين ليلة مضطربة تملؤها الأحلام المفزعة. وإستيقظت في الصباح وهي تصيح. ومدت يدها نحو أبيها هاتفة:

– أواه.. أبي العزيز.. ألا تستطيع إنقاذي؟

أخذها المسيو دافريني بين ذراعيه، ولكن العبرات خنقته فلم يحر جواباً.

وتمالكت مادلين نفسها بجهد شديد، ثم سألت

– هل جاء الكاهن؟

فلما أخبرها أبوها بقدومه طلبت رؤياه، وما دخل الكاهن حتى التفتت إليه قائلة:

– سيدي الكاهن.. لقد كنت دائماً مشيري الروحي ولهذا أرسلت في طلبك لأني أريد أن أعترف لك. أتركني الآن يا أبى بضع دقائق مع أبي الروحي.

غادر مسيو دافريني غرفة ابنته بعد أن قبل جبينها، فلقى أموري عند الباب. صاح أموري:

– رباه! رباه! هل ماتت؟ هل ماتت دون أن أكون بجانبها؟

أجاب المسيو دافريني:

– كلا! فستبقى معنا في هذا العالم أربعة وعشرين ساعة أخرى.

فأحنى أموري رأسه وانفجر في البكاء. وظل الرجلان هكذا نحو الساعة، ثم سمعا وقع أقدام فإلتفت أموري وإذا القادم هو الكاهن الشيخ. وقال أموري:

– حسناً!

أجاب الكاهن:

– إنها ملك طاهر.

فرفع المسيو دافريني رأسه قائلاً:

– ومتي تؤدي لها الفرائض الأخيرة؟

أجاب: في الساعة الخامسة هذا المساء. وهي تطلب أن تحضر ابنة عمتها انطوانيت.

قال المسيو دافريني:

– إذن فهي تعلم أنها مشرفة على الموت.

ثم نهض وأمر بإحضار انطوانيت من قرية دافراي.

فلما جاءت انطوانيت في الساعة الخامسة كان بالغرفة مشهد أليم يذيب أشد الأفئدة قسوة، كان المسيو دافريني واقفاً على أحد جانبي الفراش مقطب الجبين، وقد أمسك يد ابنته المحتضرة، وراح يعتصر ذهنه لعله يهتدي إلى وسيلة لإنقاذها في آخر لحظة. وجلس أموري إلى الجانب الآخر وهو يحاول أن يبتسم خلال عبراته، بينما وقف عند مؤخرة الفراش الكاهن بطلعته الوقورة، وهو ينظر إلى الفتاة المحتضرة حيناً، ويرنو إلى السماء التي توشك أن تستقبلها حيناً آخر. ورفعت انطوانيت الستار، ووقفت لحظات في ركن الغرفة المعتم دون أن يفطن إلى وجودها أحد.. وقالت مادلين في رقة:

– لا تحاول إخفاء دموعك يا أموري، إننا لا نخطيء إذا بكينا لأننا

لا نملك غير ذلك، ثم إنه محزن حقاً أن يحكم علينا بالفراق ونحن في ربيع الحياة. شد ما يحزنني يا عزيزي أن يخطر ببالي أنني لن أراك ولن ألمس يدك، أواه، ما أقسى هذا كله دعني أنظر إليك يا حبيب حتى أذكر وجهك العزيز عندما تكتنفني الظلمة، من هذه التي ستحبك يا أموري وتفهمك كما أحبك وأفهمك، أواه لو عرفت مثل هذه الفتاة يا أموري لوهبتك لها، فما يعرف فؤادي الآن الغيرة! إن حزني عليك يعدل حزني على نفسي، فستجد من الوحشة في هذا العالم ما سوف أجده في قبري.

أخذ أموري ينشج نشيجاً مرتفعاً، وشعرت انطوانيت بالدموع تهطل على وجنتيها وراح الكاهن يصلي في صوت متهدج ونبرات متقطعة. أما المسيو دافريني فقد يسر له حبه العظيم تمالك نفسه في هذه الساعة الرهيبة دونهم جميعاً، وقال في حنان:

– إنك تجهدين نفسك بالكلام يا مادلين.

واستطردت قائلة:

– وماذا عساي أقول لك يا أبي؟ وقد كانت كلماتك وأعمالك في هذين الشهرين فيها من الحب الإلهي الشامل، ما عساي أقول في حبك الكريم الذي لا يقف عند غاية، ولا تنال منه الغيرة. وممن يمكن أن تغار الآن؟ ولكنه مع ذلك حب مبرأً من الهوى، وإني لأكبره و... ثم بكت بكاءً خفيفا وقالت:

– وأحسده..

وقال الكاهن:

– إن صديقتك وأختك انطوانيت التي طلبتها هنا..

فلما رأت انطوانيت أن وجودها قد عرف، أفلتت صيحة من بين شفتيها، وتقدمت نحو مادلين والدموع تنهمر من عينيها. وإرتدت مادلين أول الأمر ولكنها تمالكت نفسها في لحظة واحدة وبسطت ذراعيها لإبنة عمتها، فتهالكت انطوانيت على الفراش بجانبها.

ظلت الفتاتان متعانقتين برهة، ثم نهضت انطوانيت ووقفت عند مؤخرة الفراش إذ كان الكاهن قد خرج. وبرغم ما كابدته انطوانيت من الهموم في غضون الشهرين الماضيين، وبرغم ما يعتمل الآن في نفسها من الحزن والجوى، فقد كان جمالها باهراً متألقاً يبشر أنها ستكون دائماً مطمحاً للقلوب وفتنة للأبصار. ومن السهل أن نقدر عذر مادلين فيما خامرها من الغيرة وهي تقلب بصرها بين حبيبها وبين هذه الفتاة المشرقة التي توشك أن تتركها إلى جانبه سريعاً، وأدرك أبوها ما يجول في خلدها فانحنى فوقها قائلاً:

– أنت التي طلبتها يا عزيزتي.

أجابت مادلين بسرعة:

– أجل.. وإني لمسرورة برؤياها.

أما أموري فقد ظن أن مادلين تحسد ما ترى في ابنة عمتها من

مظاهر القوة والفتاء، وإزدحمت في صدره عواطف الحقد والغضب إذ رأى في مثول هذه الفتاة القوية المشرقة أمام حبيبته المنهوكة الذاوية قحة وتحدياً، فآلى على نفسه إذا هو لم يمت مع مادلين كما كان معتزماً أن يفعل، ليمقتن انطوانيت بقدر ما يحب مادلين ويقدس ذكراها. ثم انبعث قرع جرس صغير منبئاً بوصول الكاهن وشمامسته لآداء الواجبات الدينية الأخيرة، فخروا ساجدين، وغشى الغرفة سكون هائل رهيب، وهمت مادلين في فراشها كأنها تتهيأ لملاقاة الله. وقالت للكاهن:

– إن الخواطر الآثمة لتهاجم نفوسنا حتى ونحن على أعتاب الأبدية يا أبي.. ولم أخل من الإثم والخطأ منذ إعترفت إليك هذا الصباح.. فأحرج أن أتخفف مما يثقل ضميري قبل أن تعطيني القربان المقدس.

ومن ثم بدأت الشعائر المقدسة فخيل إلى أموري أن فؤاده يحترق، ووقف ضاماً قبضتيه رافعاً رأسه والدموع تهطل من عينيه كأنه تمثال لليأس والقنوط. أما المسيو دافريني فقد وقف جامداً لا يزفر ولا يتنهد ولا تجود مآقيه بعبرة، وهو يمزق منديله بأسنانه ويحاول عبثاً أن يتذكر صلوات طفولته المنسية. ولكن انطوانيت لم تملك زفراتها وانتحابها. وغادر الكاهن والشمامسة الغرفة.. فاسترخت يدا مادلين على جانبيها، فأخذ كل من المسيو دافريني وأموري يداً منهما وراحت انطوانيت تصلي. وحاولت مادلين أن تتكلم ولكنها لم تحتمل هذا الجهد. وسألها أبوها وهو جاث بجانبها ألا تتكلم. كان يرى أن الساعة الرهيبة قد دنت. ولم يكن يطمع في أكثر من تأخير ذلك الفراق الأبدي.

لقد كان يسأل الله في أول الأمر أن ينقذ حياتها، ولكنه الآن يتوسل إليه أن يبقيها بضع ساعات ...ومن العسير أن نصف ما ازدحمت به القلوب الثلاثة من الغصص والآلام. فما يمكن أن يحس بهذا الحزن القاتل غير من كابده. وحوالي الساعة الرابعة من الصباح أخذت مادلين سنة من الكرى فما رآها أموري تغمض عينيها حتى أجفل مرتاعاً.. ولكن المسيو دافريني أشار إليه مطمئناً وقال:

– لا تجزع إنها نائمة فقط.

وفي الساعة الخامسة دق جرس كنيسة قريبة داعياً الأرواح إلى الله، والمؤمنين إلى الصلاة.. واستقر عصفور على حافة النافذة وبعد أن أنشد أنشودته القصيرة طار مبعداً.. وفتحت مادلين عينيها. وحاولت أن ترفع رأسها وهي تقول لاهثة:

– أعطوني هواء.. أعطونى هواء..

ثم تهافتت وهي تتنهد وكان هذا آخر عهدها بالحياة. نهض المسيو دافريني وقال في صوت مختنق:

– الوداع يا مادلين.

وصاح أموري، وانفجرت انطوانيت باكية معولة. كانت مادلين قد ذهبت حقاً، وانسلت من النوم إلى الموت في دعة وسكون. وراح الأب والعاشق والأخت ينظرون إلى عزيزتهم لحظة. وكانت عيناها لاتزالان مفتوحتين، فمد أموري يده ليطبق أجفانها ولكن المسيو دافريني منعه

قائلاً:

–أنا والدها يا سيدي.

وقام بهذه الخدمة الأخيرة لإبنته الميتة، وراح يتأمل وجهها لحظة في حزن وأسى، ثم سحب على وجه ابنته المحبوبة الغطاء الذي صار لها كفناً وحجب تلك الملامح الجميلة التي أخذت تجمد في قبضة الموت. ثم جثا الثلاثة وهم يبكون بكاء مراً، وأخذوا يصلون على الأرض من أجل تلك التي كانت الآن تصلي من أجلهم في السماء .

الأزهار الجافة

عاد أموري إلى غرفته فوجد كل ما فيها يثير من الذكريات، فلم يطق البقاء وغادر البيت هائماً على وجهه. وكانت الساعة السادسة والطرقات لا تزال مقفرة من المارة فأخذ يسير مطرقاً برأسه وهو لا يتمثل غير صورة مادلين ملفوفة في أكفانها ولا يسمع إلا صدى قائلاً لا يفتأ يتردد في سمعه هاتفا: ماتت! ماتت! وأخذت الفكرة القابعة في أعماق نفسه تبرز وتتجلى وتملك عليه مسالك التفكير. يجب أن يموت! لقد ماتت مادلين فما حاجته إلى العيش بعدها؟ أية رغبة أم أية عاطفة يمكن أن تحمله على التعلق بالحياة؟ وما وطن نفسه على هذا العزم حتى فارقته مظاهر الفجيعة والجزع.. وتجلت في جميع حركاته سمات الهدوء والثبات. إذ كان لا يريد أن يرى الناس في انتحاره أثراً من آثار الجنون الطارىء كما كان يريد أن يكون علامة على القوة والشجاعة، لأعلى الضعف والوهن. وعول على قضاء اليوم في تنظيم شئونه وسداد ديونه وكتابة رغباته الأخيرة وزيارة أصدقائه المقربين وإعلانهم أنه قائم في رحلة طويلة، وفي صباح الغد يشهد جنازة حبيبته دون أن يخرجه الحزن عما أخذ به نفسه من السكون والثبات، ثم يقصد في المساء إلى دار الأوبرا حيث يشهد تمثيل «عطيل» ويستمع إلى موسيقى روسيني التي كانت مادلين تحبها. ثم يعود إلى البيت ويقضي على نفسه برصاص مسدسة.

وقد رسم نهايته على هذا النحو، دون أن يفطن إلى ما فيه من

الصبغة المسرحية، أو يخطر له أن المرء يستطيع الموت على نحو أبسط من هذا كثيراً، وعاد أدراجه وقد كظم حزنه وتمالك نفسه. وأوى إلى فراشه فاستغرق في نوم عميق إذ برح به النصب والحزن.. ثم إستيقظ في الساعة الثالثة فذهب لزيارة أصدقائه بعد أن أرتدي ثيابه في عناية وعاد إلى البيت فتناول الطعام.. ولقد راب الخدم هذا الهدوء العجيب فراحوا يتساءلون هل أصابته جنة أذهلته عن مصابه؟

وفي الساعة العاشرة قصد إلى مسكنه حيث أنفق الليل في كتابة وصيته ووصل ما إنقطع من يومياته. فلما دقت الساعة الثامنة من الصباح كان قد فرغ من كل شيء. فتناول مسدسيه. وأودع كلا منهما رصاصتين، ثم وضعهما في جيب معطفه واستقل مركبته إلى بيت المسيو دافريني. ولم يكن الأب المنكود قد غادر مخدع إبنته منذ الليلة السابقة والتقى أموري على السلم بانطوانيت فهمت بالرجوع، ولكنه أدناها في رفق وطبع على جبينها قبلة أخوية. وعجبت انطوانيت لما أبصرت من هدوئه وسكونه، وراحت تراقبه حتى غاب في غرفته. ووضع المسدسين بدرج مكتبه، ثم ارتدى ملابسه لحضور الجنازة وهبط السلم فالتقى بالمسيو دافريني. لقد غارت عينا الوالد المنكود وشحب وجهه شحوباً شديداً كأنه ميت يخرج من لحده. وإرتد إلى الوراء عندما خرج من غرفة مادلين إذ بهر الضوء بصره، وقال في نفسه: لقد مضت أربع وعشرون ساعة!

تحدد للصلاة على جثمانها الساعة الثانية عشرة، ثم تنقل إلى قرية دافراي. ووصلت مركبات الجنازة إلى الكنيسة في منتصف الساعة الثانية عشرة، وقد استقل المسيو دافريني أول مركبة منها وليس معه غير أموري.

بدأت الصلاة، فكانت كل كلمة منها تنفذ إلى شفاف قلب الأب الواله، وراح يردد الآيات وراء الكاهن. وراح الوالد التعس يهتف من أعماق نفسه:

– يا إلهي عجل بالنهاية! واحسرتاه. إلام يطول بي هذا النفي؟

كان الموسيقار الكبير تالبرج صديقاً لأموري ومادلين. فتطوع بتوقيع الألحان على معزف الكنيسة. وأثرت الموسيقى الشجية في نفس الوالد والعاشق أبلغ التأثير. ولكن شتان ما بين مشاعر الرجلين! ظن أموري في طيشة واندفاعه أنه فوق هذا النشيد الذي يصور غضب الله، وخاله صيحة منبعثة من فؤاده المتروح. أما مسيو دافرينى الذي سحقته الفجيعة سحقاً فقد شعر بما في هذا الغضب القدسي من حق وعدل، وأحنى رأسه في ذلة وخشوع. مزج العاشق بين يأسه وتلك الأنغام. وثار على الكون كله إذا خلا من مادلين. أما فؤاد الوالد الملتاع فقد أخذته الرجفة أمام غضب المهيمن الجبار. وشعر أنه شيء تافه حقير. وهو الذي كان يعتد بنفسه ويكذب بكل شيء. وراح يتقصى ضميره فرأى ما حفلت به حياته من الشرور والآثام وهاله ذلك لا خشية العذاب الأليم، وإنما لأنه يخشى أن يفرق الله بينه وبين ابنته في العالم الأبدي. وانتهى نشيد الغضب، وتلاه نشيد الصفح والمغفرة، فسكن جأشه وغمره الهدوء وأخذ يدعو الله ألا يعامله بعدله بل برحمته وغفرانه. وإنتهت الصلاة الأليمة، فخرج أموري رافع الرأس كأنه يتحدى الكون. أما المسيو دافريني فقد تبع جثمان إبنته مطأطيء الرأس خاشعاً.

وكان مقرراً دفن الجثة بقرية دافراي، فتفرق المشيعون عقب انتهاء الصلاة ولم يبق منهم غير ثلاثة أو أربعة من الأصدقاء الحميمين بينهم فيليب أوفراي. ومقبرة قرية دافراي مقبرة هادئة جميلة تخلو من تلك التماثيل الضخمة والعبارات الكاذبة وهي ليست بالفخمة الرائعة.. ولكنها توحي إلى المرء بالدعة والهدوء.. فيقول ما قاله لوثر في مجمع ورمس:«إنني أحسدهم لأنهم في راحة» ولكن لوثر عندما تعلق بهذه الكلمات لم يكن يشيع جثمان إبنة عزيزة.. أو زوجة محبوبة.. كان يتكلم كفيلسوف.. لا كوالد أو زوج. أي ربي! من ذا الذي يملك تصوير ما يعتلج من الحزن والجوى في صدر من يتبع فقيدته المحبوبة إلى قبرها؟

وراحوا يوارون الجثة الهامدة، والمسيو دافريني راكع بجانب اللحد. أما أموري فقد وقف منتصب القامة مستنداً إلى جذع شجرة باسقة. فلما أهيل التراب على الجثة، وضعت على جانب القبر لوحة من الرخام نقش عليها:

هنا تثوى مادلين دافريني

ماتت في ١٠ سبتمبر سنة ١٨٣٩ وعمرها ١٨ سنة و٣ أشهر و٥ أيام.

هنا يثوى الدكتور دافريني

الذي مات في.... ودفن في... كان المسيو دافريني يرجو أن يكتب التاريخ في غضون سنة...ولما انتهى كل شيء بعث الوالد الحزن إلى القبر بقبلة قائلاً:

– إلى الغد.. إلى الغد فقط يا مادلين.. ولن أفترق عنك. ثم غادر المقبرة بخطى ثابتة، وأغلق الحارس الباب وراءه. وقال الطبيب للأصدقاء القلائل الذين رافقوا الجثة إلى القرية.

– قد تكونون قرأتم على قبر مادلين أن الرجل الذي يكلمكم لم يعد من الأحياء.. ولن أكون منذ اليوم لهذا العالم، بل لإبنتي وحدها، ولن تعرفني باريس ومجتمعاتها منذ الغد، سأبقى وحيداً بهذا البيت الذي تشرف نوافذه على المقبرة، وسأنتظر دون أن أستقبل أحداً حتى يكتب التاريخ الذي لايزال مكانه خالياً باللوحة التي على قبرنا. فتقبلوا لآخر مرة شكري ووداعي.

وبعد رحيلهم إنثنى إلى أموري قائلاً:

– قلت أنني لن أرى باريس. ولكني عائد اليوم معك لتصفية حساباتي وتسوية شئوني.

فأجاب أموري في فتور:

– وأنا كذلك فإنه ليسرني أن لايزال بلوحة قبر مادلين متسعٌ لإسم آخر.

وحدج المسيو دافريني الشاب بنظرته النفاذة دون أن يظهر شيئاً من العجب لكلماته.. ثم قال:

– آه.. هذا حسن.

ثم سار إلى المركبة وهو يقول:

– هيا بنا..

وافت الساعة التاسعة مساء فاستقل أموري مركبته إلى دار الأوبرا حيث انزوى في ركن مقصورته حزيناً ممتقع الوجه، ودهش أصدقائه ومعارفه لقدومه، وراعهم ما يبدو في ملامحه من الجد والصرامة، فلم يجرؤ أحد منهم على الاقتراب منه . وانتهى التمثيل فقفل عائداً إلى بيت المسيو دافريني، ورأى الضوء ينبعث من نافذة المكتبة فسار إليها. وكان المسيو دافريني جالساً أمام مكتبه فنهض عند قدوم أموري.. وقال الشاب:

– لقد جئت لأحييك قبل ذهابي للنوم..وداعاً يا أبتاه!.

وحدق الطبيب في وجه الشاب مليا.. ثم قبض على يده قائلا :

– وداعاً يا أموري.. وداعاً!

ثم دس ساعده في ساعد الشاب ووضع يده على قلبه فوجده هادئاً أشد الهدوء وإنثنى الفتى خارجاً من الغرفة. ولكنه لم يكد يبلغ الباب حتى ناداه الطبيب:

– أموري!. كلمة أخرى..

– نعم.. ما هي يا سيدى؟.

– سألحق بك في غرفتك بعد خمس دقائق لأن لي إليك حديثاً.

– سأكون هناك يا أبتاه.

وقصد أموري إلى غرفته فأخرج مسدسيه ليستوثق من أنه لم يمسهما أحد.. ثم سمع وقع أقدام المسيو دافريني فأعادهما إلى الدرج وأغلقه. وأغلق المسيو دافريني باب الغرفة في عناية، ثم دنا من الشاب في هدوء ووضع يده على منكبه، وراح الرجلان ينظران أحدهما إلى الآخر صامتين.

وقال أموري:

–كنت تريد محادثتى يا أبي.

– أجل.. أيخطر ببالك يا ولدي العزيز أنني لم أدرك عزمك على الانتحار.

إنتفض أموري ونظر نحو الدرج برغمه.. واستطرد الطبيب قائلاً:

– أجل .. إنك تريد الإنتحار، وفي هذا الدرج المسدس أو الخنجر أو السم! إني لمعجب يا ولدي أشد الإعجاب بحبك ووفائك، وإني لأرى الآن أن مادلين لم يخطئها التوفيق حين أصفتك حبها وإنك كنت جديراً حقاً بذلك الحب. وما أنكر أن العيش بدونها محال، ولكني أطلب إليك ألا تنتحر.

فقاطعه أمورى قائلاً:

– سيدي...

– دعني أوضح لك ما أعنيه يا ولدي العزيز.. أتحسبني سأطلب منك إلتماس العزاء والسلوان؟ إن هذه العبارات المألوفة غير خليقة

بحبك ولا بحبي. إني أشعر مثلك أنه لم يبق لنا بعد رحيل عزيزتنا مادلين عن هذه الأرض سوى أن نلحق بها في السماء.. ولكني فكرت في هذا الأمر كثيراً منذ زمن بعيد.. وهيهات أن يكون الانتحار وسيلتنا إلى الإجتماع بها، نعم إنه أقصر السبل، ولكنه ليس أضمنها، لأنه ليس بالسبيل الذي رسمه الله.

– ولكن يا أبتاه...

– لا تقطع علي الحديث.. ألم تسمع إلى نشيد الغضب الإلهي في الكنيسة اليوم؟ ما عسى أن يكون أمرنا إذا أقصى الله المنتحرين عن سمائه؟ فما عسى أن يكون أمرنا إذا عاقبتنا بالتفرقة بيننا وبين مادلين إلى الأبد؟ أما أنا فأوثر على الشك في لقائها أن أعيش عشر سنوات مليئة بالأحزان الموجعة والآلام القاتلة!.

– أعيش!. أعيش.. بلا هواء.. ولا شمس.. ولا حب، بدون مادلين!

– هذا أمر لابد منه يا أموري فإصغ إلي.. بإسم مادلين.. بإسم هذه التي نقدسها كلانا أمنعك أنا أبوها من الإنتحار.

فأتى أموري بحركة تنبيء عن اليأس ودفن وجهه بين راحتيه هو واستطرد المسير دافريني قائلاً:

– أتعرف أن مادلين أشرقت على ذهني بخاطر أفاض على نفسي الطمأنينة والثبات وهم يهيلون عليها التراب الذي يباعد ما بينها وبيني؟.

سأنبئك بهذا الخاطر ثم أتركك تخلو إلى نفسك حتى تتأمل في تحذيري وتطيل فيه النظر والتمعن. ولا يخالجني ريب في أنك ستأتي إليّ في الصباح لتستمع إلى الكلمات القلائل التي أريد الإفضاء بها إليك وإلى انطوانيت.

- ولكن ما هو الخاطر؟

- هذه هي الكلمات التي كانت آخر ما وجهته إلى مادلين فيما أعتقد فأذكرها ولا تنسها: «لماذا يقتل الإنسان نفسه؟ إن القدر سيوافينا جميعاً»

وإنصرف الشيخ دون أن يزيد على ذلك كلمة أخرى. وليس الموت بالخطب الجلل إذا تقدم العمر بالمرء و إذا ما خبت في صدره العاطفة المشبوبة. وجفت من حوله أزاهير الأماني والآمال، ولا يبقَ من شعلة التوهج غير رمادٍ بارد.. ولكن الأمر يختلف عن هذا إذا قتل المرء نفسه وهو في عنفوان الشباب. وما نزعم أن أموري لم يكن جاداً فيما إعتزم ولكن جد الطبيب ورصانة كلماته، وإستنجاده بإسم مادلين العزيز الكريم، كل ذلك حمل الشاب على التمعن والتفكير. ماذا لو قضى الله بينه وبين مادلين بالفراق الأبدي. أليست مكابدة الجوى ومعاناة العيش النكد أهون خطباً كما قال المسيو دافريني.

وأخيرا استقر رأيه على إحتمال أعباء الحياة والصبر على آلامها، ولكنه سيعتزل الناس جميعاً كي يخلي ما بين نفسه وبين جواها لعل الحزن يسرع به إلى الخاتمة المنشودة. وأخرج من صدره باقة الأزهار

الجافة التي كانت تتزين بها مادلين ليلة الحفلة فهملت عبراته، وخففت بعض ما به من حرق الحزن والأسى. فلما بزغ الفجر وجد نفسه راضيا بقضاء الله، وراح يقول في نفسه مع المسيو دافريني: «لماذا يقتل الإنسان نفسه؟. إن الموت سيوافينا جميعاً» .

نظرة أخيرة

في صباح التالي استدعي المسيو دافريني أموري وانطوانيت، وظل الثلاثة لحظة واجمين لا ينطقون بكلمة، وكان الأب يرمق الصبيين بحنو، وهما ينظران في رهبة إلى هذا الرجل الذي يحتمل أحزانه في هدوء وثبات.. ثم أجلسهما عن جانبيه، وأخذ يديهما بين راحتيه المرتجفتين.. وقال في صوت جمع بين اللوعة والحنان:

– إنني أحبكما، فلم يبق لي سواكما، ولكن سامحاني فما أستطيع البقاء معكما.

فصاحت انطوانيت:

– ماذا ؟ أتتركنا يا خالي العزيز؟.

– دعيني أتم قولي يا بنيتي.. إن أمامكما الحياة والمستقبل، أما أنا فليس ثمة ما أطمح إليه غير الموت، فلا مفر لنا من التفرق. سوف أقضي ما بقى لي من الأيام وحيداً في قرية دافراي، وليس معي غير خادمي جوزيف. ولن أغادر البيت إلا لزيارة قبر مادلين والذي سأستقر فيه عما قريب. وفي أول كل شهر سأستقبلكما حيث تتحدثان إليّ عن نفسيكما وتقفان على حالي.

فهتفت انطوانيت باكية:

– ولكن ماذا يصير إليه أمرى يا خالي العزيز؟

– وهل يخطر ببالك يا إبنتي أنني أغفل الاحتياط لمستقبلك؟. لقد أوصيت لك بعد موتي بكل ما أمتلك، وسترثين منذ اليوم جميع ما كان لمادلين.

وهمت انطوانيت بالاعتراض.. فقاطعها قائلاً:

– أعرف ما تريدين قوله.. هو أن فتاة نبيلة القلب مثلك أشد حاجة إلى العطف والحنان منها إلى المال، ويجب أن تتزوجي يا عزيزتي.. وما دام ليس في وسعك العناية بخالك الشيخ، فهل تملكين حقوق رفض واجبات الزوجة والأم؟ هل تذكرين يا عزيزتي أن صديقي الحميم الكونت دي مانجيس كان قد طلب يد مادلين منذ سنة لولده الوحيد؟. لقد رفضت حينذاك، ولكني أستطيع الآن مكاتبته، ولا ريب أنه وقد فاتته إبنتي، فيستقبل إبنة أختى مسروراً إذ أن لها كل ما كان لمادلين من شباب وثروة وجمال.. فما رأيك يا انطوانيت في الفيكونت دي مانجيس؟.

وراح المسيو دافريني ينتظر ردها، ولكنها لم تجب. أما أموري فقد كان يراقبها في تأثر وقلق.

وكان انطوانيت ألمت بما يعتمل في نفسه.. فقالت في صوت مضطرب:

– أعدك أنني لن أعصي إرادتك ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.. على أني أسألك أن تمهلني قليلاً.. فما يحسن أن أتزوج بين مظاهر هذا الحداد العميق. وما دمت تريد أن تنزوي بجوار قبر مادلين، فإسمح لي أن أعيش هنا حيث يذكرني كل شيء بها.

– ليكن ما تريدين يا انطوانيت، وعليك أن تستعيني بصديقي الكونت دي مانجيس وزوجه في كل ما يعرض لك من الشئون وأنت يا أموري؟

ونظرت أنطوانيت إلى الشاب بقلب خافق وقد خامرها مثل ما خامره.. فقال:

– يبدو لي أن الأحزان يختلف أثرها فقد اعتزمت أن تعيش بجوار قبر مادلين، وأبت أنطوانيت أن تغادر البيت الحافل بذكرياتها.. أما أنا فإن مادلين هنا.. في فؤادي، فكل الأماكن لدي سواء. وإني لأريد أن أخلوا إلى أحزاني فلا يتطفل على أحد بكلمة تعزية.. أريد أن أتألم بعيداً عن الناس، وسأغادر باريس، وقد أغادر فرنسا بأسرها.

وانفجر الشاب باكياً.. فنهض المسيو دافريني ووضع يده على كتفه وقال في حنان:

– كن رجلاً يا أموري...

وقالت انطوانيت وهي تضغط على يده:

– أموري أخي العزيز..

وبعد أن هدأت لوعته عاد إلى الكلام قائلاً:

– سأسافر إلى بلد آخر حزين موحش مثلي يغشاه الضباب ويكتنفه الظلام...

فقال المسيو دافريني:

– إذا وافقتما يا ولدي فسنجتمع على المائدة في الساعة الخامسة كما كنا نفعل فيما مضى، ثم يذهب كل منا في سبيله.

قال أموري:

– إلى الملتقى إذن يا سيدي..

وقالت انطوانيت:

– إلى الملتقى..

اجتمع الثلاثة حول المائدة في الموعد المضروب، والتقت أنظارهم جميعاً عند المكان الذي كان من عادة مادلين أن تجلس فيه، فإحتدمت بين جوانح أموري لواعج الحزن والجوى، وشعر أنه لن يقوى على كتمان ما به فاندفع خارجاً من الغرفة. وبعد قليل قال الطبيب:

– إذهبي يا انطوانيت وأسألي أخاكي أن يأتي.

ألفته انطوانيت جالساً في الخميلة التي كانت تؤثرها مادلين، وعلى نفس المقعد الذي شهد القبلة القاتلة التي طبعها على ثغرها، وقد دس إحدى يديه في شعره، وأمسك بالأخرى منديلاً يعض عليه بنواجذه. وقالت الفتاة وهي تمد إليه يدها:

– أموري.. إنك تزيد من شقائي وشقاء خالي.

فنهض دون أن يجيبها بكلمة، بيد أنه لم يتذوق طعاماً برغم إلحاح المسيو دافريني الذي كان يغالب أحزانه، فأخفى وجهه بين راحتيه، ولم يعد يرى غير طيف إبنته..

وقال أمورى:

– يبدو لي أنني سأكون أشد وحشة وعزلة، فإنكما ستلتقيان كل شهر، أما أنا فمن يبلغنى أنباءكما أو يحمل إليكما كلمة مني؟

فصاح المسيو دا فرينى:

– لا تكتب إليّ يا أموري،ولكن ليس ثمة ما يمنعك من مكاتبة انطوانيت، وهي ستجيب عن رسائلك..

– وهل توافقين على ذلك يا انطوانيت؟

فأجابت انطوانيت وهي تغضي ببصرها والإحمرار يصبغ محياها:

– إذا كان في وسعي يا أموري.

وفي منتصف الساعة السابعة أقبلت المركبتان.. فابتسم المسيو دافريني في حزن، وتنهد أموري وشحب وجه انطوانيت، ثم ركعا أمامه وهتف أموري:

– عانقني قبل أن أرحل يا أبي..

وقالت انطوانيت:

– باركني يا خالي العزيز.

فضم الشيخ يديه حولهما والعبرات في عينيه، ثم قال وهو يدفع انطوانيت حتى إلتقى جبينها بشفتي أموري:

– ألا تقبل انطوانيت يا أموري؟

– الوداع يا انطوانيت.

– الوداع يا أموري.

ونهض المسيو دافريني قائلاً:

– هيا يا أموري.. يجب أن نرحل الآن.. وداعاً.. وداعاً يا ولدي.=.

أجاب أموري في ذهول:

– أجل.. لا تهملي الكتابة إليّ يا انطوانيت.

ولكن انطوانيت لم تجب. وشعرت بتخاذل قواها فلم تستطع المسير معهما حتى الباب، على أنها لم تلبث أن شعرت بالقوة تعاودها من جديد فهرعت إلى نافذة مطلة على الفناء لتتزود منهما بنظرة أخيرة.. ورأتهما يتودعان من بعضهما، فارتدت عن النافذة حتى لا ترى مسير المركبتين.. وهي تشد يدها على فؤادها كي تسكن من خفقاته.

الحياة تسترد سلطانها

«من أموري إلى انطوانيت.. ليل في ١٦ سبتمبر»

اضطررت إلى البقاء هنا بضع ساعات لإصلاح خلل أصاب مركبتي.. فرأيت أن أنفق هذه الفترة في الكتابة إليك.لم أكد أتجاوز أسوار باريس حتى بدا لي أنني لا أستطيع الرحيل قبل توديع مادلين.. وبعد ساعتين بلغنا قرية دافراي، ولعلك تذكرين أن المقبرة يحيط بها سور منخفض. ولم أكن أريد أن يعلم أحد بزيارتي فقفزت فوق السور وقد انتصفت الساعة التاسعة، وخيم الظلام. وأخذت أتلمس طريقي إلى القبر. ولكني لم أكد أدنو منه حتى تبينت شبحاً مستلقياً فوقه. وازددت إقتراباً فعرفت فيه المسيو دافريني، لقد كان معها دائماً في حياتها، وها هو يلازمها في موتها!. وإستندت إلى إحدى الأشجار ريثما ينصرف.. فسمعته يناجيها في صوت رقيق.. ثم نهض، فكدت أصعق دهشاً إذ سار نحوي.. لقد رآني!

وقال: إني أتركك يا أموري وحدك مع مادلين، إني باقٍ هنا وأنت راحلٌ.. وداعاً يا أموري.. ولقد جثوت عند قبرها ورددت مناجاته.. لم أفق من ذهولي واستغراقي حتي نبهني الحوذي، فانتزعت غصناً من أغصان الورد المغروسة على قبرها، وانصرفت وكأني أستروح من أريجه أنفاسها».

«من أموري إلى انطوانيت.. أوستند في ٢٠ سبتمبر»..

«أنا في أوستند.. ولأحدثك عن يوم من أيامنا في قرية دافراي؛ ومادلين في الثامنة من العمر، وأنا في الثانية عشرة.. خطر لنا في ذلك اليوم أن نغافل مس براون فنخترق الغابة إلى جلاتينى، حيث نبتاع باقة من الزهور نقدمها إلى المسيو دافريني في عيد ميلاده. وكنا قد اخترقنا الغابة مرة في رفقة المسيو دافريني فزعمت أنني خبير بالطريق، وسارت معي مادلين واثقة. ولما بلغنا بيت البستاني أبرزنا له فرنكين – هما كل ما كان معنا– وقلنا له في خيلاء إننا نريد زهوراً بهذه النقود كلها. وأجاب البستاني ضاحكاً:

– تريدان زهوراً بهذه (النقود كلها).

قلنا: أجل.. إذ نريد مفاجأة الدكتور دافريني بها في عيد ميلاده، فإنه والدنا.. قال: مادامت للدكتور دافريني فلكما أن تحملا زهور الحديقة كلها لأنه أنقذ حياة إبنتي. أنظري يا انطوانيت إلى سخرية الأقدار، لقد أنقذ المسيو دافريني حياة ابنة ذلك البستاني ولكنه عجز من إنقاذ حياة إبنته! وطفقنا نتنقل بين الخمائل ونقطف ما شئنا من الزهور حتى اجتمع لنا منها حمل ثقيل وخشينا أن يفطنوا إلى غيابنا إذ قضينا في الحديقة زهاء الساعتين، فسلكنا طريقاً آخر خيل إليّ أنه أقصر من الطريق الذي سلكناه في مجيئنا. وسرنا في مسالك الغابة على غير هدى حتى أيقنت أنني ضللت السبيل وصارحت مادلين بذلك فطفقت تبكي... وفيما نحن في حيرتنا أقبلت إلينا إمرأة تحمل طفلاً رضيعاً

وراحت تشكو إلينا ما تعانيه وطفلها من الجوع منذ يومين، إذ توفى زوجها منذ ثلاثة أشهر ولم توفق إلى عمل يقوم بأودها، وقست القلوب فلم تجد فيها مكاناً للرحمة والإحسان.. أنبأتها مادلين أننا ضللنا طريقنا إلى القرية وليس معنا شيء من النقود، وأنها إذا سارت بنا إلى قرية دافراي فسيجزل لها أبوها الدكتور دافريني المكافأة..وما كان أشد عجبنا عندما أخبرتنا السائلة أنه ليس بيننا وفي القرية غير مسيرة دقائق معدودات وانطلقنا مسرعين فاستقبلتنا مس براون غاضبة، وقالت أن المسيو دافريني عاد الآن ولم يسأل عنا بعد لحسن الحظ.. على أن مادلين لم تلبث أن قالت: ولكن كيف يتهيأ لنا حمله على مساعدة هذه المرأة البائسة إذا كتمنا عنه مغامرتنا؟ وهكذا أبى قلبها الرحيم وعاطفتها النبيلة إلا أن تؤثر ما ينالها من اللوم والتعنيف على حرمان تلك المرأة من الإحسان. وروت لأبيها القصة كلها، فنلنا قسطا من التعنيف والملاطفة معاً! أما المرأة البائسة فقد أرسلت بطفلها إلى مزرعة مورسان، وأنها وولدها ليدعوان الله الآن أن يرحم مادلين بقدر ما كانت ترحم البؤساء العافين.»

«من انطوانيت إلى أموري ٣ أكتوبر»

ليس لدي ما أحدثك به عن نفسي يا أموري، وسأقنع بالحديث عن خالي العزيز وعن مادلين وعنك أنت، ولقد رأيت المسيو دافريني في أول أكتوبر طبقاً لما اتفقنا عليه، لقد رأيته ساهماً مشتت الفكر، فخشيت أن أزعجه، واكتفيت بإستراق النظر إليه. وشد ما نالت منه الهموم والأحزان، فقد ازدادت غضون وجهه تعمقاً، وفقدت عيناه كثيراً من تألقهما،

وإرتسمت على محياه آيات الأسى، وفي المساء قبلته مودعة والعبرات تترقرق في مقلتي.. هذا هو كل ما حدث في لقائنا يا أموري، على أنه برغم إنقباضه من الناس وإعراضه عن كل ما يتصل بهم، لا يفتأ يرسل إلى جوزيف مستعلماً عن أحوالي، فأقف من الخادم العجوز على ما أشاء من أنبائه.

وهو لا ينقطع قط عن الذهاب كل صباح مهما كان الجو رديئاً إلى قبر مادلين ليحييها فيما يقول، ويظل هناك ساعة ثم يعود، وبعد أن يقضي خمس دقائق في تناول طعام الإفطار – وهو لا يصيب من الزاد أكثر مما يسد رمقه– يغلق على نفسه باب مكتبته، ويكب على دفتر يومياته الذي سجل فيه حياة مادلين يوماً يوماً منذ مولدها إلى موتها، وهو يبتسم حيناً ويبكي حيناً آخر. وهكذا يقضي خالي المسكين نهاره، ولا يأوى إلى فراشه قبل أن يذهب إلى قبرها ليحبها تحية المساء كما يفعل في الصباح، ويعود في الساعة العاشرة أو الحادية عشرة بوردة بيضاء من مقبرتها يستبقيها بغرفته في أصة كانت بمخدع مادلين، وأن مادلين لخليقة حقاً بما يمزق أفئدتنا جميعاً من اللوعات والأحزان، فكن أميناً على حبها وفياً لذكراها يا أموري.

ولكن إذا كان الحب هو أحسن ما في هذا الكون، فهل تراه الأمر الصالح الوحيد؟ أليس العلم والفن والسلطان واجبات ترمى إلى غايات نبيلة؟ إنك غض الشباب، واسع النفوذ، عريض الثروة. ولديك كذلك ثروتي التي ورثتها عن مادلين لسوء الحظ والتي لا حاجة لي بها، فلماذا لا تستخدم هذا كله في البر والإحسان وخدمة بني الإنسان؟ إنك لا

تفكر الآن في الانتحار.. أليس كذلك؟ أنها لتكون جريمة نكراء، فإنك لا تزال في مستهل حياتك.

عفواً يا أموري إذا كتبت إليك على هذا النحو فإني لا أكاد أتمثلك شريداً وحيداً تثقل فؤادك الهموم والأحزان حتى أشعر من نحوك بعطف أخوي شديد.. يجب أن تعيش يا أموري!»

«من أموري إلى انطوانيت 15 كتوبر»

هأنا في أوستند.. وقد وصلني كتابك في أنتورب وكان له أحسن الوقع في نفسي، بيد أن جرحي عميق لا يأسوه شيء وأن كنت أرجو أن تبعثي إلى بالكثير من كلماتك الرقيقة التي تذهب على بعض الألم وأن تحدثيني عن نفسك وعن أنبائك. تقولين أن المسيو دافريني تغير كثيراً فلا يشق عليك هذا يا انطوانيت. أنه كلما تفاقمت حالته إزداد سعادة وسروراً. وسأكتب لك دائماً عن مادلين وهيهات أن أجد سبيلاً إلى الكتابة عن غيرها فإنها لا تزال أبداً ملء الفؤاد والخاطر ولا تفتأ تتمثل لي بكل سبيل. سأذكر كيف تعرف ما يكنه كل منا من الحب لصاحبه. كان ذلك بالحديقة في ليلة من ليالي الربيع منذ سنتين ونصف وقد تطرق بنا الحديث إلى ذكر الصفات التي يشفيها كل منا في الحبيب الذي ينشده ليشركه في حياته ومستقبله. فأدهشنا أن رأينا ما بيننا من عجيبه الإتفاق. وقلت: أريد لها مثل صفاتك وشمائلك يا مادلين. وقالت : أريد له مثل صفاتك وشمائلك يا أموري. فصحت وقلبي يشتد في الخفقان: آه .. لو أحبتني فتاة مثلك! وقالت مادلين واللون يغيض من وجهها:

ماذا؟ هل خطرت ببالك قط؟ وضممتها إلى صدري وكأن أبواب السماء قد فتحت أمامي، ولكن.. أمن السداد يا انطوانيت أن أحيي في نفسي هذه الذكريات؟ إنها ذكريات عذبة ولكنها تدمي الفؤاد. إلى الملتقى يا أختاه. إمنحيني قليلاً من حبك وكثيراً من عطفك ورثائك.»

«من انطوانيت إلى أموري ٥ نوفمبر »

" رأيت خالي مرة يا أموري، وقضينا يوماً لا يختلف عن سابقه فليس لدي من نبأ جديد عنه وليس لدي كذلك ما أتحدث به عن نفسي، فإني أقضي أيامي في الأعمال المنزلية ويزورني أحياناً بعض أصدقاء المسيو دافريني القدماء، ولكني لا أجد شيئاً من السرور إلا في زيارات إثنين منهم. الأول هو الكونت دي مانجيس الذي يعطف على هو وزوجته الكونتس أشد العطف، ويفيضان على حنان الوالدين الكريمين. أما الثاني فهو صديقك فيليب أوفراي. إن المسيو فيليب هو زائري الوحيد الذي يقل عمره عن الستين، وهو يزورني بوجود مس براون دائماً. وما أوثره على غيره لفضل فيه فإنه غبي سخيف، وحديثه يبعث في النفس أشد السآمة والضجر، ولكني أرغب كثيراً في زياراته لأنه صديقك، ووجوده يهيىء لي الفرصة للتحدث عنك. وهو يلوذ بالصمت إذا كان عندنا زائرون غيره، ولكنه لا يفتأ يرنو إليّ على نحو يسبب لي أشد الاضطراب والإرتباك. وما لي أخفي الحقيقة عن قلب نبيل كقلبك؟ إن حاجة الروح إلى الحب كحاجة الرئة إلى الهواء، وحبي لك جزء من ماضي حياتي، ولعله الحب الوحيد الذي أستطيع أن آمل فيه في المستقبل. ولست أكتمك أن الوحدة تكاد تقتلني، وشد ما أتوق إلى ما

يأخذ فيه الناس من ألوان التسلية والمتاع. على أن فيليب يهيىء لي الفرصة لشيء من الدعابة والمرح، فإني لأسخر من بلادته إذا كان حاضراً، وإتخذ من ذلك مادة للعبث والمزاج مع مس براون بعد ما ينصرف. أتلهف الآن إلى سماع أنبائك منك أنت، فما أشقاني بك وبخالي جميعاً. إني لأحسد مادلين أن قضت نحبها، وهي محاطة بالحب والوفاء أما أنا فإني أدفن حية في قبر من الوحدة والنسيان".

«كولونيا في ١٠ ديسمبر»

«طلبت إلى يا انطوانيت أن أتحدث إليك عن نفسي، فلماذا أؤلمك بحديث أحزاني وأنت تضيقين بالوحدة وتتوقين الى أليف تسكنين إليه؟ أتعرفين يا انطوانيت أن المرء إذا ما أحب لم يعد قلبه يخفق بين جنبيه بل بين جنبي حبيبه، فلا أمل لأحدهما في العيش من بعد صاحبه؟ ولكنك في مقتبل العمر وريعان الصبا، ولا ريب أن فؤادك يهفو إلى الحب كما يهفو الصادي إلى الماء الزلال. على أنك لن تجدي قلباً خليقاً بحبك، ومن الخير أن تفكرى وتطيلى التفكير قبل الإقدام.»

حاشية – إحذري فيليب، فإنه سخيف جداً كما تقولين، ولكن الوقوف على بواطنه ليس بالأمر اليسير، وعواطفه لا يمكن إيقاظها إلا بعد وقت طويل، ولكنها إذا استيقظت لم يقف في سبيلها شيء، وشد ما يحزنني أن ترتبط فتاة مثلك بمثل هذا الأحمق البليد.

«من انطوانيت إلى أموري»

« لقد قرأت رسالتك مراراً، وما كان أسعد مادلين التي توج حبك

حياتها، ولقد صح ما توقعت يا أموري. فإن فيليب يحبني.. وإن لم يجرؤ على مكاشفتي بحبه، وأقسم أنه يمكن أن تنقضي ستة أشهر كاملات دون أن يبوح هذا الغبي بكلمة عن هواه..أما خالي المسكين فقد ازدادت كآبته. وما أشك أنه مصاب بداء عضال يفتك به ويدنيه من قبره. ولعله لا يصبو إلا إلى هذه الخاتمة، ألا ما أشد شقائي لو قضي خالي وأنت بعيد يا أموري... وألفيت نفسي وحيدة وما أشد حاجتي إلى من يقاسمني حزني ويمزج عبراته بعبراتي! أموري.. كيف تحكم على نفسك بهذا النأي الذي يثقل كاهلي؟ ناشدتك الله أن تعود!»

«من انطوانيت إلى أموري ٢ مارس»

علمت من الكونت دي مانجيس أن أحد أقاربه رآك في هيدلبرج، وأنا أكتب إليك راجية أن تكون هذه الرسالة أسعد حظاً من رسائلي السابقة، لقد ظللت طوال الشهرين الماضيين أجهل مكانك. ولو كنت رجلاً لإرتحلت للبحث عنك. لقد مات أحد الأشخاص الثلاثة الذين كانوا يحبونني وأشرف الثاني على الموت. وها هو الثالث ينساني. وإذا طالت غيبتك حتى يقضي خالي نحبه، فلن تجديني عند عودتك إلا في الدير.»

«من أموري إلى انطوانيت»

سوف أعترف لك بكل شيء يا انطوانيت! لقد غادرت كولونيا دون أن أعرف لي وجهة أولى وجهي شطرها، ولم أترك عنواني لمكتب البريد، إذ أردت الابتعاد عن الناس جميعاً حتى أنت.. إن المسيو دافريني

يموت، أما أنا.. أنا.. فلا أجد إلى الموت سبيلاً! إن هذا الرجل يسبقني إلى كل غاية.. في الحب.. وفي الحزن أيضاً، فلماذا حال بيني وبين الإنتحار؟ كان كتابك الأخير سبب ظهور الحقيقة، فقط استردت الحياة سلطانها عليّ، وأخذت أزداد اهتماماً بما يحيط بي حتى وجدت نفسي في أحد الأيام بقاعة استقبال، وليس بيني وبين بقية المدعوين من فرق في الشريط الأسود الذي يعلو قبعتي. أيمكن أن يكون معين دموعي قد نضب، وأخذ جرح فؤادي في الإندمال؟ أيمكن أن تكون الطبيعة الإنسانية حقيرة خسيسة لا تثبت على حال من الحزن أو الفرح؟ لست أدري.. ولكني غير راغب في الموت على أية حال! أتذكرين نصيحة هاملت لأوليفيا «إلى الدير أيتها الفتاة» هذه نصيحتي إليك يا انطوانيت.. إلى الدير.. فليس في الحياة قسم لا ينكث به الناس! ولا حزن لا تأسوه الأيام، ولا حب تقصر عنه يد الفناء والنسيان! إلى الدير..!»

شتات أفكار

في الساعة الحادية عشرة من أول مايو وصلت انطوانيت إلى قرية دافراي، وراعها منظر المسيو دافريني وما فيه من إمارات السقم، وكأنه شعر اليوم بدنو أجله فبذل جهداً عنيفاً في استجماع شتات أفكاره، وراح يتحدث إليها في أمر مستقبلها، قال:

– ليس من الحكمة أن تخادعي نفسك يا انطوانيت، أن أيامي محدودة، وأريد أن أطمئن على مستقبلك قبل أن أفارق هذه الحياة من هم أكثر الأصدقاء تردداً عليك الآن؟ أخذت انطوانيت تسرد أسماء من يزورونها، فلما ذكرت اسم فيليب أوفراي أجهد الشيخ ذاكرته ثم قال:

– أليس فيليب أوفراي من أصدقاء أموري؟

– نعم يا خالي.

– وهل يحبك؟

– أظن ذلك.

– وأنت.. هل تحبينه ؟

– لا

– ألا يوجد شخص تميلين إليه يا انطوانيت؟

– أنت يا خالي العزيز.

– هذا لا يكفي يا عزيزتي، إنني أزداد كل يوم ضعفاً، وما أقوى على زيارة مادلين في الصباح والمساء إلا معتمداً على ساعد جوزيف، على أن نافذتي تشرف على قبرها لحسن الحظ، وسيكون آخر بما يقع عليه بصري قبل أن يغشاه الموت، وما نظر صوب المقبرة حتى صاح مغضباً:

– من هذا الغريب الجاثي عند قبرها؟ ولكنه ليس بغريب! إنه هو!

– أموري! أجل.. لقد عاد بلا ريب وكانت أولى زياراته لقبرها.

واستغرق المسيو دافريني في ذهوله .. أما انطوانيت فقد وقفت وهي ترتعد إرتعاداً عنيفاً، وبعد قليل دخل أموري فأفلتت صيحة من بين شفتي انطوانيت برغمها، وإنتبه المسيو دافريني من إستغراقه وقال وهو يمد إلى الشاب يده:

– هذا أنت يا أموري.

وضع الشيخ يده على رأس الشاب دون أن يتكلم، فتبادرت العبرات إلي ما في أموري وانطوانيت. ثم نهض الفتى ولثم يد انطوانيت فقال المسيو دافريني في صوت ضعيف:

– هذا اليوم من آخر أيامنا معاً، فلنستمتع به ما إستطعنا. ونظر أموري إلى الشيخ وقد حطمته الأحزان، ثم نظر إلى انطوانيت فإذا بها قد ازدادت فتنةً وجمالاً وكأنه يرى فيها مخلوقةً جديدةً لا عهد له بها فقد كانت مادلين تصرفه عن كل إمرأة غيرها. وانطلق الثلاثة يتحدثون في تبسط، وتحدث أموري عما أحدثت به الأحزان والهموم، وما اعتزمه من

الانصراف إلى أعمال البر والإحسان ومواساة ذوي الفاقة.

وفي المساء قال المسيو دافريني:

– سأترك انطوانيت إلى عنايتك يا أموري بعد رحيلي عن هذه الدنيا، فكن لها أخاً باراً وفياً. أجاب الشاب:

– أعدك أن أكون أميناً عليها وأخا لها حتى توفق إلى الزوج الجدير بها. وغضت انطوانيت بصرها فقال الشيخ:

– كان هذا موضوع حديثنا يا أموري عندما أقبلت. فهلا تعرف بين أصدقائك كفواً لها؟ أجاب أموري:

– هذا موضوع خطير يستوجب التروي.

فقال المسيو دافريني:

– لقد قدمت إلى مرة شاباً يسمى ليونس دي جيرينو.

أجاب أموري والدم يتصاعد إلى وجهه:

– الناس يقولون أن والده لعب دوراً شأئناً في الثورة.

– إن الأبناء لا يؤخذون بذنوب الآباء، فيجب أن تعرف انطوانيت بهذا الشاب تحت ملاحظة الكونت دي مانجيس؟ فهتف أموري:

– لقد أضعف البعد ذاكرتي، كدت أنسى أن ليونس أقسم أن يقضي حياته أعزب.

قال الطبيب:

– لا مناص لنا إذن من العودة إلى فيليب أوفراي. فقاطعته أنطوانيت قائلة:

– ولكني صارحتك يا خالي.

– دعي أموري يتكلم يا ابنتي. فقال في شيء من الغضب:

– – لا تحدثني عن فيليب هذا الذي استقبلته انطوانيت برغم نصيحتي لها. ولها طبعاً أن تستقبله ما شاءت، لكنه كان يحب مادلين كما اعترف لي بنفسه، وها هو اليوم يحب انطوانيت كما أحب مادلين وكما يمكن أن يحب كثيراً من النساء فيما بعد. فهل يستطيع المرء أن يثق بمثل هذا الحب المتقلب؟ وقعت هذه الكلمات على انطوانيت وقع الصاعقة. فطأطأت رأسها.

– وقال المسيو دافريني:

– أنت تقسو عليه في الحكم يا أموري، وليس في وسع أشد الناس اعتداداً بقوته أن يزعم أنه سيشعر في الغد ما يشعر اليوم لأن العواطف الإنسانية لإثبات لها ولا إستقرار.

فصاح أموري:

– أتعني إذن أنني سأحول يوماً ما عن عهد مادلين؟

وكسا وجه انطوانيت الشحوب والإصفرار. وقال الطبيب:

– لا أعني شيئاً ولكني عشت ورأيت وعرفت من الحياة ما لا تعرف على أني أرجو أن تسهر على انطوانيت وتعني بها كما وعدت.

وهنا أعلن جوزيف إعداد المركبة التي ستعود بانطوانيت إلى باريس، فأراد أموري مرافقة انطوانيت ولكن المسيو دافريني إعترضه قائلاً:

– كلا يا أموري. إنك ولدي في نظري ونظر انطوانيت ولكنك في نظر الناس شاب في الخامسة والعشرين فحسب وسأعد لك مركبة أخرى، ويجب ألا تزور انطوانيت إلا في وجود أحد أصدقائي القدماء كالكونت دي مانجيس مثلاً ويذهب فيليب أثناء وجوده.

– أأرغم إذن على لقاء فيليب الذي أمقته ولا أحب أن أراه؟

قالت انطوانيت:

– بل يجب أن تأتي يا أموري لترى أي إستقبال يلقاه عندي ولتعرف أنه كان يجب أن ينقطع عن زيارتي لو أن له ذرة من العقل، سيزورني الكونت وزوجته غداً فتعال يا أموري.

وسار معهما الشيخ متوكئاً على مساعد جوزيف حتى ركبا مركبتهما.. ثم ذهب إلى قبر مادلين ليحييها..

لقاء بارد

في اليوم التالي ذهب أموري لزيارة الكونت دي مانجيس وكانت انطوانيت قد كتبت إلى الكونت تنبئه بعودة أموري، واستقبله الكونت قائلاً:

– يسرني أن صديقي الطبيب قد اختار لي معيناً في الوصاية شبه الرسمية على انطوانيت ولعلك تعرف أن المسيو دافريني يهمه زواجها؟

– أعتقد ذلك.

– ولعله تحدث إليك، إنني كنت أريد خطبة مادلين لإبن أختي الفيكونت دي مانجيس؟

– أجل يا سيدي.

– لم أكن أعرف حينذاك أن المسيو دافريني وعدك بيدها فلما وقفت على ذلك انسحبت في الحال، على أنني قد جددت الآن الخطبة لانطوانيت فلم يعارض المسيو دافريني في ذلك فهل لي ان أرجو يا سيدي العزيز الحصول على موافقتك كذلك؟

فقال أموري في شيء من الإضطراب:

– يا سيدي.. إذا كانت انطوانيت تحب إبن أختك ولكني أظنه ملحقاً بسفارة بطرسبرج؟

– ولكنه عاد بالأمس وسأقدمه إليك في الحال.

ودخل في تلك اللحظة شاب طويل القامة أسمر البشرة تحلي سترته شرائط أوسمة اللجيون دونور الفرنسي، والنجم القطبي السويدي، والقديسة أنا الروسي. وإنحنى الشابان لبعضهما في فتور وقد داخل كل منهما نفور غريزي من صاحبه. وفيما هما يتحدثان عن بلاط روسيا أعلن الخادم قدوم فيليب أوفراي الذي جاء ليرافق الكونت دى مانجيس لزيارة انطوانيت كعادته. وفوجيء فيليب بمرأى صديقه فدنا منه ولكن أموري انحنى له في فتور مهين، ثم أدار له ظهره وراح يتلهى بالنظر إلى إحدى الستائر. وأخذ الفيكونت دي مانجيس ينظر إلى فيليب مسروراً بما يعانيه من الخجل والإضطراب، ثم أقبلت الكونتس دي ماجيس فتنفس فيليب الصعداء وشرع إليها..

وقال الكونت: إننا ذاهبون نحن الخمسة لزيارة انطوانيت، ولكن مركبتي لا تتسع لنا جميعاً.. وأعتقد أن معك مركبتك، الصغيرة يا أموري..

فبادر أموري قائلاً:

– أجل.. ويسرني أن يركب معي الفيكونت دي مانجيس..

وصل الجميع إلى بيت المسيو دافريني في شارع دانجوليم، فألفاه أموري على عهده به، لم تمتد إلى شيء منه يد التغيير. وكان بين الزائرين خمسة شيوخ من أصدقاء الكونت، فراحت انطوانيت تنتقل بينهم في رشاقة، وأخذت الذكريات تتوارد على خاطر أموري وكل ما يكتنفه يكاد

يهتف بإسم مادلين ولكنه لم يأنس من نفسه ذلك الحزن الساحق الذي كان يمزق فؤاده منذ ستة أشهر وراعه هذا الجمود فانسل إلى الحديقة وقصد إلى أريكة الورد التي كانت تؤثرها مادلين، وإحتل نفس المقعد الذي شهد قبلته القاتلة، فخيل إليه أن مادلين جالسة بجانبه،. فغمغم بكلمات متقطعة، ومد يده فإذا بيد أخرى تضغط عليها.. وصاح:

– مادلين!

– إنني انطوانيت...

هتف الشاب وهو يضمها إلى صدره وهطلت من عينه الدموع، وراح يحمد حبها الأخوي وعطفها الكريم. ثم عادت الفتاة حتى لا يفطن زائروها إلى غيابها، ولحق بها أموري بعد قليل، فأخذ الكونت دي مانجيس ينقل إلى عينيه المحمرتين في عطف ورثاء.

إنكار الشغف

كانت انطوانيت فاتنة مغرية لأموری، ورشيقة ظريفة، ومؤدبة متحفظة لفيليب. وكان من غرائب الاتفاق في تلك السهرات أن يجد أموري نفسه إلى جانبها دائماً إذا ما أكب الزائرون على لعب الورق، وأن يتحدثا في أصوات منخفضة حديثاً خاصاً لا يشاركهما فيه أحد. ومن غرائب الإتفاق كذلك أن أبدت انطوانيت رغبتها في ملء بضع صفحات من مجموعة تحفظ بها توقيعات أعلام الرجال، ثم قطعة من الحلي يأبى الصائغ إحضارها إلا إذا إنتزعها منه أموري إنتزاعاً. وإتفق بين ما إتفق في تلك الفترة الحافلة بأعجب المصادفات أن كان أموري يعبث في إحدى السهرات بمفتاح صغير فوضعه في جيبه دون أن يشعر وكان لزاماً عليه أن يذهب به في صباح اليوم التالي لئلا تحتاج إليها...

ولكن لم يكن هذا كل شيء. كان أموري مولعاً بركوب الخيل وكان طبيعياً أن يعود إلى سابق عادته، فيمطتي جواده الأصيل ويخرج في صباح كل يوم. والجواد الذكي لا ينتهي به دائماً إلى شارع دانجوليم فحسب، وإنما يسير متئداً متمهلاً إذا ما بلغ ذلك الشارع... وتشاء المصادفات أن يرفع أموري بصره إذا ما أصبح أمام نافذة بعينها دائماً، وتشاء المصادفات أن يكون في تلك النافذة دائماً رأس جميل يحييه بإيماءة رشيقة.. وإنفرد الكونت دي مانجيس في إحدى السهرات بإنطوائية قال لها ضاحكاً:

– ما دمت ووصيك أموري تحبان بعضكما، فلماذا تكتمان ذلك أيها الخبيثان؟!

ولكن انطوانيت أنكرت ذلك وألحت في الإنكار، وفي السهرة التالية مباشرة بدأت الفترة الثانية إذ أقبلت انطوانيت على راءول وأحاطته بعطفها، وأعرضت عن أموري دون أن يدري لذلك سبباً.. وفاتحها أموري في هذا الشأن ذات ليلة، وراح يقول أن حبها لراءول لا يستوجب تلك الجفوة، وهمت بالجواب ولكن غيرهما من الزائرين انضموا إليهما. وبدأت في السهرة التالية الفترة الثالثة إذ توفرت انطوانيت على فيليب، وفيليب المسكين مضطرب حائر في أمره.

وبعث الكونت دي مانجيس ذات صباح في طلب أموري فلما وافاه راح يقول أن شاباً معيناً لا يفتأ يحوم حول بيت انطوانيت، وأن هذا المسلك من شأنه تعريض إسم الفتاة للظنون والشبهات. ولم يفهم أموري ما تنطوي عليه كلمات الكونت من تعريض بمسلكه الخاص فانصرف على عجل وهو يعده أن يعيد الأمر إلى نصابه.

مبارزة الخصمان

قصد أموري من فوره إلى بيت فيليب، فاستقبله الشاب مرحباً، ولكن أموري وصف له في أقسى العبارات ما ينطوي عليه مسلكه من الخسة إذ يعرض فتاة نبيلة للفضيحة، وعبثاً حاول المسكين أن يقنعه بشرف مقصده، وأنه يحب انطوانيت كما تحبه، وكان يريد الذهاب إليه لإستشارته في شأن الإقتران بها. وإنتهى الأمر بينهما بتحديد اليوم التالي للمبارزة، وترك أموري لفيليب إختيار السلاح.. والتقى الخصمان في المساء بقاعة إستقبال انطوانيت، وأقبلت الفتاة على فيليب كعادتها والمسكين تتنازعه السعادة والأسى. وقال لها في صوت مضطرب متقطع:

– إذا ألم بي مكروه فهل تمنين علي بعبرة أو تذكرينني أحياناً!

وسألته عما يعنيه فاضطرب ولم يجب، غير أن غريزتها النسائية أوحت إليها بالخطر العتيد، فدنت من أموري قائلة:

– غداً هو أول يونيو، وهو موعد زيارتنا للمسيو دافريني فلا تنس أن تكون هنالك في الساعة العاشرة يا أموري.

أجاب أموري في ذهول:

– أجل.. سأكون هناك،ولكن إذا تأخرت فلا ينتظرني المسيو دافريني إذ قد يستبقيني عملٌ هام في باريس.

ازدادت مخاوف انطوانيت، فخلت بالكونت دي مانجيس وأطلعته على كلمات فيليب وأموري، وأسرت إليه ما يساورها من القلق، ولكن الكونت تظاهر بالهدوء وعدم الإكتراث حتى لا يزيد من إنزعاجها.. ووعدها أن يرد الشابين الطائشين إلى رشدهما.

وفي الساعة السابعة من صباح اليوم التالي وصل الخصمان إلى غابات بولونيا مع شاهديهما وتم الإتفاق أن تكون المبارزة بالمسدسات لأن فيليب لم يمس سلاحاً طوال حياته، والمسدس أسهل الأسلحة. ووقف الخصمان أمام بعضهما. وأخذ شاهد فيليب يقيس المسافة بينهما. وهنا أقبل الكونت دي مانجيس وهبط من مركبته قائلاً:

– هل تسمحون لي أيها السادة باختلاء لحظة بأموري ؟

ولما أصبحا بعيدين عن الإسماع قال الكونت:

– فيم هذه المبارزة يا أموري؟

– لقد أساء إلى سمعة انطوانيت والواجب يقضي علي بمحاسبته.

– ولكنه لم يكن وحيداً في هذا الأمر، فإن ثمة شاباً آخر يسيء إليها أبلغ الإساءة بطوافه حول بيتها صباح كل يوم على صهوة جواده!

أجفل أموري إذ رأى أن أمره لم يكن سراً خافياً، وأطرق برأسه قليلاً ثم قال:

– حسناً.. سترى يا سيدى الكونت كيف أتلافى هذا الخطأ ؟

وهم بإمتطاء جواده فقال الكونت:

- ألا تصافح الآن صديقك فيليب؟

وصافح فيليب صديقه مسروراً مبتهجاً بزوال هذا العداء الذي لم يفقه له سبباً.

جذوة الحب الكامنة

إستقل أموري مركبته وأسرع إلى قرية دافراى فبلغها في منتصف الساعة الحادية عشرة. وصاحت انطوانيت مبتهجة وهي تقول:

– هذا أنت يا أموري. ما هذا الإصفرار الذي يكسو وجهك هل أصبت بسوء؟

– لا تجزعي فلم يمسني سوء ولا فيليب.

فقاطعته انطوانيت قائلة:

– ولكن ما سبب ما يبدو في وجهك من الهم والإكتئاب؟

– إني أريد التحدث إلى المسيو دافريني في أمر هام.

قالت انطوانيت وهي تتنهد:

– وأنا أريد محادثته كذلك.

وسارا إلى غرفة دافريني صامتين، فلما قبل الطبيب انطوانيت ومد يده إلى أموري، أجفلا دهشة لما أبصرا في وجهه من التبادل الذي كاد يأتي على معالمه. بيد أن الطبيب نفسه كان هادئاً قريراً وهو يعلم أنه من الأبدية على قاب قوسين أو أدنى، وقال:

– كنت أنتظركما بصبر نافذ، وإني لمسرور بقضاء هذا اليوم معكما. ولكن ما هذا الهم البادي عليكما؟ أتخشيان أن يفارقكما أبوكما الشيخ؟

قال أموري:

– إنك ستبقى معنا زمناً طويلاً، ولكني أريد التحدث إليك في موضوع هام، ويبدو لي أن انطوانيت تريد محادثتك كذلك في شأن خطير.

– إني في خدمتكما يا ولدي العزيزين، فاجلسا على جانبي وضعا يدكما في يدي.. إننا ننعم في جلستنا هذه بالراحة والهدوء.. أليس كذلك؟

ونظر أموري وانطوانيت صوب قبر مادلين، وكأن هذه النظرة قد زادت كل منهما قوة على أمر عقد عزمه عليه. وإستطرد الشيخ قائلاً:

– والآن. فلتبدئي أنت يا انطوانيت.

فقال أموري:

– أرى أنه يجب عليّ الانسحاب ريثما تفرغ انطوانيت من حديثها.

وقال الشيخ بعد خروج أموري:

– إننا وحدنا الآن.. فماذا تريدين أن تقولي يا إبنتي؟

فأجابت الفتاة في صوت مضطرب وهي تغضي ببصرها:

– لقد كانت أجل أمانيك أن أتزوج، وقد وفقت إلى رجل ليس بالنبيل ولا بالذكي ولكنه يحبني حقاً وهو ليس بالمجهول منك.. ثم نظرت إلى قبر مادلين كأنها تستمد منه الشجاعة والعزم وأردفت في

اضطراب واضح:

– وهذا الرجل هو المسيو فيليب أوفراي.

فإنفرجت شفتا الشيخ عن إبتسامة رقيقة وقال:

– ولكنك طالما سخرت منه يا ابنتي.

– لقد غيرت رأيي يا أبتاه أن تأثرت بحبه العميق الصادق.

– حسناً إذهبي الآن إلى غرفة أخرى حتى أسمع ما يريد أموري قوله ثم أدعوك.

وبعد انصراف انطوانيت جاء أموري وأخذ يقول في صوت تبين فيه الطبيب مثل إضطراب انطوانيت:

– لقد عهدت إلى يا أبتاه بالبحث بين معارفي وأصدقائي عن رجل جدير بأن يكون زوجاً لانطوانيت وقد فكرت في الأمر طويلاً وهأنا أطلب يدها للفيكونت راءول دي مانجيس.

أجاب المسيو دافريني:

– هذا إقتراح حري بالنظر والتفكير.

ثم نادى انطوانيت فأقبلت واجفةً مضطربةً فأجلسها الشيخ إلى جانبه، وبعد أن قبّل جبينهما في حنان قال:

– إنكما كريمان نبيلان، وإني لمسرور بما يوشك أن يحدث الآن.

فسألته انطوانيت في صوتٍ مضطرب:

– وما الذي يوشك أن يحدث؟

– إن حقيقة الأمر هي أن أموري يحبك وأنت تحبين أموري.

واستطرد الطبيب قائلاً:

– إتركا هذا الشيخ الفاني يتكلم ولا تقاطعاني.. لقد قرأت ما كتبت يا أموري وسمعت ما قلته يا انطوانيت، وإني لخبير بنزعات النفس وأحوالها. إنك طاهر القلب كريم النفس يا أموري، ولقد أردت الإنتحار عندما ماتت مادلين، وكانت رسائلك في أول الأمر تفيض باليأس والقنوط لأنك كنت عاكفاً على نفسك لا تلقي إلى ما يحيط بك بالاً. على أن جذوة الحب الكامنة في أعماق فؤادك لم تلبث أن عادت إلى توهجها، وأخذت تلتمس دون أن تدري رفيقاً تفرغ عليه حبك، فكان طبيعياً أن يستهويك وجه الفتاة منذ طفولتك، وأن تهفو إلي انطوانيت رفيقة صباك. وهكذا عدت إلى باريس، فلما وقفت على الحقيقة راعتك وأزعجتك، فإستنصرت بكل ما أوتيت من القوة والعزم، وأردت أن تقيم بينك وبين انطوانيت سداً منيعاً، فجئت تطلب يدها للفيكونت راءول.

ثم إنثنى إلى انطوانيت قائلاً:

– أما أنت يا إبنتي فقد أحببت أموري منذ وقع بصرك عليه.

فأخفت انطوانيت وجهها الذي كساه الإحمرار في صدره وغمغم الشيخ في حنان:

– شد ماتألمت يا إبنتي المسكينة.. لماذا تنكرين هذا الحب؟ إنه

بريء طاهر، وليس فيه ما يدعو إلى الخجل، هيا يا ولدي إجثوا أمامي كي أبارككما.

وجثما أموري وانطوانيت عند قدمي الطبيب، فوضع يديه على رأسيهما ورفع بصره إلى السماء وقد شاع في وجهه السرور.

همس أموري:

– أكنت تحبينني حقاً طوال ذلك الزمن يا انطوانيت؟

وهمست انطوانيت في وجل:

– أحبك حقيقة راهنة أم أضغاث أحلام؟

قال:

– ألا تقرئينه في وجهي؟

فغمغمت الفتاة:

– ألا تراه في دموعي؟

وهنا دخل الخادم جوزيف وأعلن إلى المسيو دافريني أن شاباً يصر على مقابلته لأمر يختص بالمدموازيل انطوانيت.

وبعد قليل أقبل فيليب، وبعد حلول التردد والإحجام قال:

– إني أعتذر يا سيدي من الحضور لمقابلتك بهذه الثياب، ولكن الظروف قضت على بالتعجيل بالحضور. سيدي إني أتشرف بطلب يد إبنة أختك الآنسة انطوانيت دي فالجانسيز.

فأجاب المسيو دافريني:

– وأنا يا سيدي أتشرف بدعوتك إلى حفلة قران الآنسة انطوانيت دى فالجانسيز بالكونت أموري دي ليوفيل، وستكون فيما بين الخامس والعشرين والثلاثين من هذا الشهر.

أفلتت من بين شفتي فيليب صيحة واحدة يتمثل فيها اليأس والأسى، وانطلق من الغرفة كالمجنون دون أن يستأذن أو يودع أحداً. كان المسكين قد وصل متأخراً نصف ساعة كعادته دائماً.

الخاتمة

في أول أغسطس التالي كان أموري وانطوانيت معاً بالمنزل الصغير في شارع دي ماتيران. وقد أنستهما نشوة السعادة أن النهار تقدم كثيراً، وكان زواجهما قد تم في الليلة السابقة بكنيسة سانت كروادانتان.

قالت انطوانيت:

– هيا بنا يا عزيزي نستقل المركبة. فإن الساعة تدق الثانية عشرة والمسيو دافريني في إنتظارنا.

فقال جوزيف من خلفهما:

– إن المسيو دافريني لن ينتظركما قط.. لقد ساءت حالته منذ بضعة أيام، فأصدر الأوامر الصارمة بكتمان حالته عنكما إذ لم يكن يريد أن يزعجكما أو يحزنكما.. ولكنه في منتصف الساعة الخامسة بعد ظهر أمس قضى نحبه في هدوء وسلام.

وكانت تلك هي نفس الساعة التي نطق فيها الكاهن ببركة الزواج.

الفهرس

مقدمة ٥
نظرة فاتنة ١٣
غضب جامح ١٨
غريب في البيت ٢٥
رسالتان ٣١
من مذكرات المسيو دافريني ٣٤
عاطفة الغيرة القبيحة ٣٩
لهفة وقلق ٤٤
جرس المساء ٥٠
الفرصة المنشودة ٥٤
توقيت غير مناسب ٦٠
سعادة تحت الحراسة ٦٧
حفلة الخطوبة ٧٧
حدث في الحفلة ٨٨
نوم هادىء ٩٣
الأمل بعد الرجاء ٩٩
الطيش رزانة، والنزق حكمةً ١٠٢
لقاء في الليل ١١٦

نكسة قاسمة ١١٩
رجفة شديدة ١٢٣
لحظة في حزن وأسى ١٣٢
الأزهار الجافة ١٤١
نظرة أخيرة ١٥١
الحياة تسترد سلطانها ١٥٧
شتات أفكار ١٦٦
لقاء بارد ١٧١
إنكار الشغف ١٧٤
مبارزة الخصمان ١٧٦
جذوة الحب الكامنة ١٧٩
الخاتمة ١٨٥